تفريغ السلسلة الصوتية الصادرة
عن إذاعة البيان

تَأَمُّلَاتٌ

في سورة الحجرات

الطبعة الأولى - ١٤٤٦ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ سلسلة

تأملات في سورة الحجرات

الصادرة عن إذاعة البيان

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ

مؤسسة صرح الخلافة

مركز إنتاج الأنصار

الفهرس

المقدمة...٤
الحلقة الأولى..٥
الحلقة الثانية..١٢
الحلقة الثالثة..٢١
الحلقة الرابعة..٢٨
الحلقة الخامسة..٣٦
الحلقة السادسة..٤٣

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد؛

يسر إخوانكم في مؤسسة صرح الخلافة أن يقدموا لكم تفريغًا لسلسلة (تأملات في سورة الحجرات) الصادرة عن إذاعة البيان، وهي من ٦ حلقات، من إعداد الشيخ أبي يحيى الليبي -رحمه الله، وهي ضمن دروس أقيمت في إحدى الدورات الشرعية عام ١٤٢٧ هـ، مع التنبيه إلى أن مجموع الدروس المنشورة سبعة؛ الأول منها لم يتم نشره، تمت مراجعتها نحويًّا ولغويًّا، وُجِدت في السلسلة علامات التنصيص للآيات والأحاديث والأقوال كلٌّ على حسبه، ووُجِّدت كذلك الألوان للآيات والأحاديث كلٌّ على حسبه، وخُرِّجت الأحاديث النبوية.

نسأل الله الكريم أن يعيننا على تدبر القرآن والعمل به.

إخوانكم في صرح الخلافة

الحلقة الأولى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)

إذاعة البيان تقدم: تأملات في سورة الحجرات

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين وعلى من اهتدى بهديه وسار على سنته إلى يوم الدين، ثم أما بعد؛

وكنا قد وقفنا عند قول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} وقلنا إن في هذه الآية إرشادًا إلى خُلق عظيم يجب على المسلم أن يتأدب به؛ وهو التثبت في سماع الأخبار ونقلها، وإن التهاون في هذا الأمر وتلقف الأخبار من كل جهة وإشاعتها من غير تثبت ولا تحرٍّ ولا تبين يؤدي بلا شك إلى وقوع الإثم -أو وقوع المسلم في الإثم- وظلمه لغيره من المسلمين، {أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}. وكما ذكرنا بالأمس؛ النبي ﷺ يقول: "كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ"[١]، وقلنا إن هذا الأدب نحن المجاهدون في حاجة ملحة وعظيمة إليه، لأن خطأ المجاهد في نقل الأخبار وإشاعتها وبثها ليس كخطأ غيره، قد يترتب على ذلك سفك دماء ونهب أموال وغير ذلك، فحري بنا ونحن في هذه النعمة العظيمة التي منَّ الله سبحانه وتعالى بها علينا وهي نعمة الجهاد ونعمة الاجتماع على هذه الطاعة، وأننا دائمًا بفضل الله عز وجل في مجتمع إسلامي، هذه من النعم التي يندر أن

---

١ رواه مسلم.

يتحصل عليها المسلم، يعني إذا لاحظت حياتك أو وقتك تجد جلَّ وقتك تعيش بين إخوانك أو بما نسميه بالمصطلح المعاصر من الملتزمين، قلَّما تحتكَّ بالفسقة والفجار وبالعوام وبغيرهم، فوقتك كله في مجتمع محافظ، مجتمع إسلامي، مجتمع يسعى لإقامة دين الله عز وجل، فنحن أولى الناس بأن نتمسك بهذه الآداب فيما بيننا.

ثم قال الله عز وجل بعد ذلك: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ}، منَّ الله سبحانه وتعالى أو ذكر بعض مننه على الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وقال: اعلموا أيها الصحابة أو أيها المؤمنون أن رسول الله ﷺ يقيم بين أظهركم فعليكم أن تتأدبوا معه وأن تعظموه وتبجلوه وتوقروه كما ذكر في الآيات التي في مطلع هذه السورة: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ} هذه الآية قد جعلت الإنسان في مفرق طرق إما إلى العنت والمشقة والحرج والضيق وإما إلى الفلاح والنجاح والسعة باتباعه لأمر النبي ﷺ، قال: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ} يعني إما أن تطيعوا رسول الله ﷺ فتسعدوا وتفلحوا، وإما أن تحاولوا أن تأخذوا أو أن تجذبوا رسول الله ﷺ إلى طرفكم من أجل أن يطيعكم فيما تريدونه، فبعد ذلك ستقعون في الحرج والضيق والعنت {لَعَنِتُّمْ} يعني لأصابتكم المشقة، وهذا يبين لنا أن حرص النبي صلى الله عليه وسلم علينا أشد من حرصنا على أنفسنا، وأن نظره لمصلحتنا أعظم من نظرنا لمصلحتنا، كما قال الله عز وجل: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ} [سورة الأحزاب: ٦].

إذًا الإنسان بين أمرين: طريق سعادةٍ وهي في اتباع سبيل النبي ﷺ، وأن لا يقدم رأيه على رأي النبي ﷺ، وأن لا يظن المصلحة فيما يذهب إليه عقله مما هو مخالف لشرع الله عز وجل، لأنك لو حاولتَ أن تُطوع الشرع أو أن تطوع أحكام الشريعة لما تحبه أنت وتهواه أو لما يراه عقلك أو لما يوافق عاداتك فاعلم أنك تسلك سبيل العنت والمشقَّة والضيق والحرج.

هذا هو الذي تدل عليه هذه الآية فالإنسان المسلم هو متبِعٌ، المسلم يقفو أثر النبي ﷺ، والائتساء به ﷺ هو سبيل الفوز والنجاة في الدنيا والآخرة، {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ} أنت ماذا تريد سوى الله سبحانه وتعالى واليوم الآخر؟

إذا أردت النجاة في الآخرة؛ إذا أردت رضوان الله سبحانه وتعالى فما عليك إلا أن تقتدي بالنبي ﷺ، إذا ظهر لك حُكم الله وبانت لك سنة النبي ﷺ فاعلم أن مصلحتك فيها، اعلم أن مصلحتك في اتباع سنة النبي ﷺ، وأن مشقتك وعنتك في مخالفة أمره ﷺ، والمؤمن ليس له الخيرة من أمره، لا يتخير من أحكام الله عز وجل: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} [سورة الأحزاب: ٣٦]، المؤمن إنما يقول سمعنا وأطعنا، {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} [سورة النور:٥١].

واتباع أمر النبي ﷺ هو السبيل الذي يتحصل به المسلم على محبة الله عز وجل كما قال الله عز وجل: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [سورة آل عمران: ٣١]. كما قال بعض العلماء: (ادَّعى بعضُ الناس محبةَ الله فطولبوا بالبينة) طولبوا بالبرهان على صدق محبتهم لله عز وجل، ما هي هذه البينة التي عليهم أن يثبتوا بها صدق محبتهم لله عز وجل؟ هو اتباعهم للنبي ﷺ، {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ} كما تقولون {فَاتَّبِعُونِي} يعني فاتبعوا النبي ﷺ، إذا فعلتم ذلك يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم.

قال الله عز وجل: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ} العنت هو المشقة والتعب {وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} هذه من نعم الله عز وجل، وهو أن يُحبب الإيمان للإنسان، فالإنسان بنفسه لا يملك أن يحب هذا وأن يكره هذا، فقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يصرفها كيفما يشاء.

فالإنسان لا يملك لنفسه الهداية -بمعنى هداية التوفيق- هذه لا يملكها إلا الله سبحانه وتعالى الله عز وجل كما قال: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [سورة آل

عمران: ١٤٥]، قال كذلك: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [سورة يونس: ١٠٠]، سبحان الله، يعني أنت تأمَّل تدبَّر في حالك أنت صرت من أهل الإيمان صرت من أتباع النبي ﷺ، أحببت الإيمان وكرهت المعاصي بفضل الله عز وجل، الله رب السماوات والأرض هو الذي غرس في قلبك حب الإيمان، هو الذي غرس في قلبك حب اتباع النبي ﷺ، وأنت أيها الإنسان الضعيف الفقير المغمور الذي لا يُلتفت إليه ولا يسمع لرأيه؛ الله سبحانه وتعالى اختارك من بين آلاف بل ملايين البشر الضالة التائهة التي لا تفرق بين حق وباطل ولا بين ظلمات ونور ولا بين كفر وإيمان، ثم قذف في قلبك نور الإيمان، هذه نعمة عظيمة من الله سبحانه وتعالى ولا يملكها أحدٌ، حتى النبي ﷺ أكرمُ الخلقِ على الله عز وجل لا يملك هذا الأمر، كما قال الله عز وجل له: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [سورة القصص: ٥٦].

ودائمًا أنا في هذا الموطن أذكر قصة أبي طالب عم النبي ﷺ، أبو طالب ما بقي شيء يمكن أن يقدمه لحماية النبي ﷺ ولحماية الدعوة الإسلامية إلا وقدمه، أبو طالب قدَّم من الأمور الكثيرة مما لم تقدمها حركات إسلامية وهو رجل كافر، أبو طالب بقي في الحصار مع النبي ﷺ ثلاث سنوات يتحمل الجوع ومقاطعة الأقربين والحصار الاقتصادي ومع ذلك هو على كفره، أبو طالب هو الذي يقول ويشهد شهادة حق بأن الإسلام دين حقٍّ، يقول:

ولقد علمت بأن دين محمدٍ *** من خير أديان البرية دينًا

أبو طالب هو الذي يتعهد أمام النبي ﷺ بأنه لن يسلمه لأحد حتى يموت كما يقول في شعره:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم *** حتى أوسد في التراب دفينًا

لن يصلوا إليك! ومتى هذا؟ عندما كان النبي ﷺ أحوج ما يكون إلى من يحميه، أحوج ما يكون إلى من يدافع عنه، أحوج ما يكون إلى من يجيره، النبي ﷺ كان يطوف ويمشي في أيام

الحج وينادي من يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي؟ يبحث عن هذا الأمر وأبو طالب قام بهذه المهمة، ومع ذلك عندما جاء الأجل وحان الموت؛ أبو طالب على فراش الموت يطلب منه النبي ﷺ كلمة واحدة؛ كلمة واحدة يمكن أن يحرك بها لسانه، مَن الذي منع لسان أبي طالب من أن ينطق بهذه الكلمة؟ قال له: "يا عم؛ قل كلمة واحدة أحاج لك بها عند الله يوم القيامة"[١]، كلمة واحدة! لا يريد منه عملًا، فقط تنطق بهذه الكلمة وتخرج من الدنيا، ولكن كانت شياطين الإنس فوق رأسه (أترغب عن ملة عبد المطلب؟) قالوا له: أتترك ملة عبد المطلب؟ يعني هو كان يدافع عن النبي ﷺ حميَّة وعصبية وهو على ملة عبد المطلب يعني على ملة الشرك والكفر، وعندما خرج من الدنيا قال أنا على ملة عبد المطلب، خلاص! خسرَ الدنيا والآخرة، هذا عم النبي ﷺ مع هذه الأعمال الصالحة العظيمة التي قدمها وعندما كان النبي ﷺ أحوج ما يحتاج إليها، ولهذا النبي ﷺ لمعرفته بما قدمه أبو طالب قال: "وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ما لَمْ أُنْهَ عنْه"[٢]، حتى أنزل الله سبحانه وتعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)} [سورة التوبة]. والله سبحانه وتعالى أنزل: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [سورة القصص: ٥٦].

فيا أيها العبد، يا أيها المسلم، يا من هداك الله؛ هل قدمت من الأعمال لخدمةِ الإسلام كما قدم أبو طالب؟ لا والله ما قدمت، حماية النبي ﷺ لا يعدلها شيء، الذبُّ عن النبي ﷺ عن شخصه في وقت الضيق ووقت الضعف والعجز والكفرة كلهم يتكالبون عليه وهو يقف حاجزًا أمامهم هذا ليس كالدفاع عن الإسلام مجردًا أو الدفاع عن العقيدة مجردةً، نعم هذا عمل صالح وهو جهاد وهو عظيم ولكن هذا لا شك أنه لو كان من مسلم مخلص لما عدله شيءٌ، ولذلك فالسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار لا يساويهم مَن بعدهم لأنهم صبروا واحتسبوا وتحملوا الأذى ودافعوا عن النبي ﷺ، لماذا كان أبو بكر رضي الله تعالى عنه أفضل الصحابة؟ لأنه وقف مع النبي ﷺ في كل موقفٍ حرج وفي كل لحظة كان

---

[١] لم يرو بهذا اللفظ، وروي بألفاظ مقاربة عن البخاري ومسلم وابن حبان.

[٢] رواه البخاري.

يحتاج إليه فيها، حتى أنه كان أبو بكر رضي الله تعالى عنه عندما كان كفار قريش يؤذون النبي ﷺ كان يدفع عنه ويقول: (أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله)، هذا هو حال الصحابة رضي الله عنهم.

إذًا نعمة الإسلام نعمة عظيمة ولهذا ذكر الله سبحانه وتعالى بها قال: {وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ}، أنت عندما ترى هذه الشريعة تراها بأحكامها بحكمها بآدابها بتناسقها بتوافق أحكامها لا شكَّ أنك يزداد حبك إليها ويزداد يقينك بها، وهذا من فضلِ الله عز وجل، هذا من فضلِ الله سبحانه وتعالى: {وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ} والعياذ بالله، الكفر معلوم {وَالْفُسُوقَ} يعني الكبائر {وَالْعِصْيَانَ} وهو جميع ما يخالف أمر الله سبحانه وتعالى من الصغائر ومن غيرها.

الله سبحانه وتعالى هو الذي جعل قلبك ينفر من هذه المعاصي، قال سبحانه وتعالى: {وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} الذين كانوا على هذا السبيل وعلى هذا الطريق أهل النعمة أهل حب الإيمان وأهل بغض الكفر والعصيان والفسوق، هؤلاء هم الذين على طريق الرشد، يعني على الصراط المستقيم وأما مَن سواهم فهو على طريق الغواية والضلالة مهما زينوا ومهما نمقوا ومهما مدحوا إلا أنهم على ضلالة وانحراف والعياذ بالله، وما من أحد يسلك طريقًا ولو كان اعوجاجه يراه كلُّ أحد إلا يزعم أنه على طريق الرشد حتى فرعون، فرعون وهو مَن هو في الكفر ومحادة الله عز وجل عندما يخاطب قومه ماذا يقول لهم؟ يقول: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} فرعون يهدي قومه إلى سبيل الرشاد {فاستخف قومه فأطاعوه}.

وهكذا ما نسمعه اليوم من الطغاة المجرمين الذين حاربوا دين الله عز وجل يصفون الظلمات والكفر والقوانين الوضعية والديمقراطية وكل نِحلة وملة بأنها سبيل التقدم وسبيل الحضارة وسبيل الرقي وسبيل كذا، هذه هي طريق الرشد! ولكن ماذا نقول لهم؟ {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} ديننا هو دين الإسلام، هو الذي قال الله عز وجل فيه: {وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} [سورة الأنعام: ١٥٣]،

لا يوجد إلا طريقٌ واحدٌ يوصلُ إلى الله عز وجل وهو طريق الإسلام، {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة آل عمران: ٨٥]، {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [سورة آل عمران: ١٩]، {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [سورة الفاتحة: ٦] ما قال الصراط هو صراط واحد، اهدنا الصراط المستقيم، فالإنسان إذا وجد نفسه على طريق الهداية في معتقده في عباداته في أخلاقه في سلوكه في معاملاته فليحمد الله عز وجل وليعلم أن الله سبحانه وتعالى قد جعله من الراشدين على طريق النجاة التي توصله إلى الله سبحانه وتعالى.

بعد ذلك قال الله عز وجل: {فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} يعني ما نلتموه أنتم من هذه الأمور التي كنا نذكرها ونعددها هو محض فضل من الله عز وجل ليس استحقاقًا من عند أنفسكم، هو تفضل وإكرام وجود من عند الله عز وجل، {فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يجعلنا من الراشدين، وأن يجعلنا ممن يحيا على الصراط المستقيم ويموت على الصراط المستقيم إنه سميع قريب.

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الحلقة الثانية

وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدهُ لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى من اهتدى بهديه وسارَ على سنته إلى يوم الدين، ثم أما بعد؛

كنا قد تكلمنا عن قول الله عز وجل: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

وقلنا إن هذه الآية -أي الآية الأولى- بينت السبيل الذي ينال به المسلم السعادة والسعة والراحة والطمأنينة والسكينة والاستقرار في الحياة، وبينت الطريق الذي يحصل به العنَت والمشقَّة والحَرَج وغير ذلك، فاتباع النبي ﷺ هو سبيل السعادة، ومخالفة أمره ومشاقَّة الله ورسوله ﷺ هو سبيل العنَت والشدَّة والضيق والحرَج.

فالآية التي نتكلم عليها اليوم هي مرتبطةٌ بهذا السياق، وإذا تأملنا في تسلسل الآيات لرأينا بينها تناسقًا عجيبًا، فالآية التي تكلمنا عنها قبل يومين قولُ الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ

نَادِمِينَ}، فعدم التثبت في الأخبار يؤدي إلى ظلمِ الغير، إما ظلمه في ماله أو في نفسه أو في عرضه أو في دمه، وهذا الظلم ربما يكتشف الإنسانُ في وقتٍ ما أنه قد هضمَ حق أخيه فيندم حين لا ينفع الندم، {أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}، فهذه الآية تحثنا على وجوب التثبت، والتثبت إنما أمر به القرآن الكريم وأمرَ به النبيُ ﷺ، فحتى لا يقع الإنسانُ في الحرجِ والعنَتِ -ومنه ظلم الغير- فعليه أن يسلكَ سبيل النبي ﷺ.

ثمَّ في هذه الآيات التي نتكلم عنها اليوم تتكلم عن نوعٍ من العنَت، بل هو من أشد العنَت والحرج الذي يقعُ بين المسلم وبين أخيه المسلم، وهو الاقتتال وسفك الدماء، هذا الاقتتال إنما يقعُ بسبب الاختلاف، وهذا الاختلاف إنما يحصلُ بسبب البعد عن دين الله عز وجل، كلما ابتعد الناس عن أحكامِ الله وعن شريعة الله وعن التمسكِ بسنة النبي ﷺ عاقبهم الله بأن جعلَ في قلوبهم العداوةَ والبغضاء، كما قال الله عز وجل في حق اليهود: {فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ} [سورة المائدة: ١٤]، عندما نسوا شيئًا مما أمرهم الله سبحانه وتعالى به، فالله سبحانه وتعالى أغرى بينهم العداوة والبغضاء، يعني ملأ قلوبهم بالشحناء والعداوة كعقوبة قَدَرية على تخليهم عن أحكام الله عز وجل، وهذا هو الذي يحصل بين المسلمين إذا ما تنكروا لشيءٍ من شريعة الله عز وجل وابتعدوا عن سيرة النبي ﷺ وعن التمسك بسنته ﷺ فإن هذا لا شك أنه سيقود إلى الاختلاف، لأن الآراء متباينة والقلوب كذلك مختلفة وطبائع النفوس ليست واحدة، فإذا لم يكن هناك دائرة يرجع إليها هؤلاء المختلفون وكل إنسانٍ يتمسك برأيه ويتشبث بما يراهُ وبما يحبه ويهواه هذا سيؤدي إلى التصادم وهذا التصادم سيؤدي إلى التنازع وهذا سيؤدي إلى الاقتتال.

ولكنَّ القرآن يتعامل مع المسلمين بل مع الناس مع واقعهم، فما ترك القرآن هذه المشكلة بغير حل، يعني المسلمون هم بشر قد تغلبهم أهواؤهم وقد يقعون في الجهل وقد يقعون في الظلم فهذه الحالات التي يمرُّ عليها المسلمون تحتاج إلى علاج وتحتاج إلى دواءٍ قرآني، وهو الذي تبينه هذه الآيات، فقال الله عز وجل: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَاۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِۚ

{فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُواۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، والآية التي تليها أيضًا، هذه الآية هي عمدة الفقهاء في قتال البغاة.

البغاة كما ذكرنا من قبل قلنا هم الذين يخرجون على الإمام بتأويل، مع أن هذه الآية لم تشر إلى الإمام ولم تشر إلى التأويل ولم تذكر شيئًا من هذا، وإنما ذكرت الآية إذا وقع قتالٌ بين طائفتين من المؤمنين فالواجب هو الإصلاح بينهما، فإذا تعدت واحدة وبغت بعد الإصلاح {فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ}، فالآية ليس فيها إشارة إلى القيود الفقهية التي ذكرها الفقهاء، ولذلك هناك فرقٌ بين معنى البغي في اصطلاح الفقهاء وبين معنى البغي في لفظِ الشارع كما جاءَ في الكتاب أو كما جاءَ في السنة.

البغيُ هو مطلق الظلم {فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ} وغير ذلك من الآيات التي تذكر البغي وكذلك الأحاديث، وأما البغي في اصطلاح الفقهاء الذي يذكرونه في كتب الفقه والذي يذكرون له أحكامًا محددة فهو الخروج على الإمام بتأويل.

فإذا كانت هناك طائفة من المؤمنين: مجموعة من المؤمنين أمَّروا عليهم أحدهم وأرادوا أن يكون هذا إمامًا ثمَّ خرجوا بالسيف وبالقوة على إمام المسلمين متأولين، يعني عندهم تأويل يعني عندهم حجة أو شبهة شرعية قوية في فعلهم هذا؛ فهؤلاء هم الذين يسمون بالبغاة، وهذه الآية من ضمن الآيات ومن ضمن الأحاديث التي استدل بها أهل السنة والجماعة على أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر، يعني ليس خارجًا من ملة الإسلام خلافًا لما يقوله الخوارج، ولذلك الله سبحانه وتعالى سمَّاهم مؤمنين مع اقتتالهم، قال: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا}.

والنبي ﷺ قد ذكر في أحاديث قال: "سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ"[١] هذا حديث صحيح، فإذا جاءَ الخارجي أو الذي لا يجمع بين الآيات والأحاديث لا يجمع بين الأدلة في المسألة، ويقول: إن مجرد قتال المسلم للمسلم هذا كفر بنص حديث النبي ﷺ. صحيح،

---

[١] رواه البخاري ومسلم.

ولكن الكفر المقصود في هذا الحديث هو كفرٌ غير مخرجٍ من الملة، أو أن هذا من أفعال الكفارِ، وإلا فإن هذه الآية دلالتها ولفظها صريحٌ في بقاءِ الإيمان بين المتقاتلين.

إذًا البغاة هذا هو تعريفهم عند الفقهاء، وذكروا لهم أحكامًا متعددة، يعني أحكامًا كثيرة للبغاة:

أولًا: قالوا -ولا نريد أن نطيل إن شاء الله- قالوا: إذا كان هناك إمامٌ للمسلمين اتفق عليه أهل الحل والعقد، يعني هذا الإمام لم يختلفوا عليه سواءٌ كان هذا الإمام إمامًا عامًّا لجميع المسلمين في أقطار الدنيا، أو كان إمامًا في قُطرٍ من الأقطار وسلَّم أهل هذا القُطر لهذا الإمام واعتبروه إمامًا يسمعون له ويطيعون، فالحُكم واحد هنا وهنا كما ذكر هذا الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومثله الإمام الصنعاني، بل الشيخ محمد بن عبد الوهاب نقلَ الإجماع على هذا، على أن مثل هذا يعني من تغلَّب على قطرٍ من أقطار المسلمين فإنه يأخذ أحكام الإمام الأكبر الخليفة الذي بسطَ سلطته على جميع أقطارِ المسلمين، الحكم واحد واضح؟

هناك أناس بهذه الصفة، ثمَّ هناك أناس يرون عدم شرعية هذا الإمام ننظر في حالهم؛

الصورة الأولى: إذا كان هؤلاء الناس متفرقين بين المسلمين، يعني ليسوا منحازين إلى جهةٍ ينفردون بها بأحكامٍ ولا بغيرها، وإنما هم يرون عدم شرعية هذا الإمام ولكنهم متفرقون بين المسلمين ويستطيعُ الإمام أن يُلزمهم بأحكام الإسلام وأن يأخذ حقوق الناس منهم، فهؤلاء ليس للإمام أن يقاتلهم سواء اعتقدوا إمامته أو لم يعتقدوا إمامته، لماذا؟ لأنهم تحت قدرة وقهر السلطان، إذا أراد أن ينتزعَ منهم حقًّا لمسلم استطاع، إذا أراد أن يلزمهم بحكمٍ استطاع، إذا أراد أن يقيم عليهم حدًّا من حدود الله استطاع، فهؤلاء ليس له أن يقاتلهم، هذه الصورة الأولى.

الصورة الثانية: أن يكونوا متفرقين، ولكنهم يجاهرون ويتكلمون ويدعون إلى خلع الإمام ولكنهم لم يستعملوا القوة، ولم ينحازوا إلى جهةٍ ينفردون بها، ففي هذه الحالة

للإمامِ أو للأمير أن يعاقبهم على فعلهم عقوبة التعزير، وله أن يحبسهم، ولكن ليس له أن يقتلهم، لماذا؟ لأنهم لم يَنصِبوا له الحرب، لم يُشهروا له السلاح، والنبي ﷺ يقول: "لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالتَّارِكُ دِينَهُ الْمُفَارِقُ"[١]، وهؤلاء ليسوا واحدًا من هذه الأقسام الثلاثة، هذه هي الصورة الثانية، واضح؟

الصورة الثالثة: هو أن ينفردوا في جهة، يعني يتحيزوا ويكونوا في مكانٍ ينفردون فيه عن المسلمين إلا أنهم ما زالوا تحت سلطان الإمام، ولم ينصبوا الحرب ولم يُشهروا السلاح فهنا ما على الإمام إلا أن يضع عليهم مَن يُجري عليهم أحكام الإسلام، رضوا أو لم يرضوا ولكن ليس له أن يقاتلهم إلى هنا، له أن يفرقهم بين المسلمين، له أن يبحث عن طريقةٍ يكف بها شرهم إلا أنه إلى هنا ليس له قتلهم ولا قتالهم.

الصورة الرابعة: هي أن ينفردوا وأن يشهروا السلاح وأن يدعوا للخروج على هذا الإمام لخلعه وقتاله وتبديله بحاكمٍ آخر، ففي هذه الحالة هؤلاء هم البغاة الذين يقاتلون.

طبعاً هناك شروط كثيرة يذكرها الفقهاء في صفة البغاة منها؛ أن يكونوا منحازين، ومنها؛ أن تكون لهم منعة وشوكة وقوة، بعضهم يشترط أن يكون لهم رأس -يعني أمير- وبعضهم لا يشترط ذلك، المهم الأمر المتفق عليه هو أن تكون لهم شوكة وقوة يقاتِلون بحيث إذا أرادَ الإمام أن ينتزع منهم حقًّا أو أن يجبرهم بأمرٍ ما استطاع لوجود الشوكة ووجود السلاح والمنعة عندهم.

ففي هذه الحالة للإمام أن يقاتلهم، ولكن لا يشرع في قتالهم حتى يدعوهم للرجوع إلى الطاعة، لماذا؟ لأن قتال البغاة من باب كف الشر ليس كقتال الكفار، يعني الكفار نحن نقاتلهم لماذا؟ نريد أن ننشر الإسلام وأن ندخلهم في الإسلام، وأما هؤلاء لمجرد كف شرهم وإعادتهم إلى الطاعة، قتالهم لهذا درءٌ للمفسدة ردٌّ للشر الذي فيهم فقط، واضح؟ فإذا حصل المقصود فخلاص يجب كف القتال عنهم.

---

[١] رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد.

قلنا أولاً عليه أن يدعوهم، يعني يدعوهم للرجوع إلى طاعة الإمام وأن يكفوا عن القتال وأن يضعوا السلاح، وإن كانت عندهم شبهة كشفها، يعني ما الذي دعاكم للخروج عليَّ أو للخروج على الإمام؟ إذا قالوا هذا الإمام ظلم وسفك الدماء وفعل وفعل، فإذا كانت هناك شبهات يحتجون بها فيجب على الإمام أن يبعث لهم من أهل العلم والعقل مَن يزيل ويزيح عنهم هذه الشبهة، وإذا كانت هناك مظلمة يدَّعونها وجب عليه أن يردها، الإمام عليه أن يرد هذه المظلمة إذا كان فيها كف للقتال، واضح؟ فإذا أصروا بعد ذلك كشف شبهتهم ورد مظالمهم إلا أنهم أصروا على القتال ففي هذه الحالة يستعين بالله ويقاتلهم، ويجب على من دعاه الإمام لقتاله معهم يجب عليه أن يخرج لماذا؟ لأن طاعة الإمام واجبة وهذا من فروض الكفايات يتعين بتعيين الإمام له.

إلا أن أحكام هؤلاء البغاة في القتال ليست كأحكام الكفار الأصليين ولا كأحكام المرتدين ولا كأحكام المحاربين الذين هم قطاع الطرق، هؤلاء لهم أحكامٌ خاصة، منها: أنه لا يجوز أن يُقتل جريحهم، هذا مذهب الجمهور، يعني إذا جُرِحَ أحد هؤلاء البغاة في المعركة فليس لأحد أن يأتي وأن يُكَمِّل عليه أن يُذفِّف عليه[١]، لماذا؟ لأن المقصود هو كف الشر وقد انكف شره خلاص، واضح؟

ليس له أن يتبِع مدبرهم، هذا مذهب الجمهور، يعني إذا هربَ هذا الباغي إذا هربَ ورجع إلى فئته فليس لأحدٍ أن يقتله وهو هاربٌ، لماذا؟ لأنه قد يكون فراره هذا فرارًا نهائيًّا لن يرجع بعدهُ إلى القتال، واضح؟

ولا يقتل أسيرهم، يعني إذا وقع أحدهم أسيرًا في أيدي طائفة الإمام فليس للإمام أن يقتله، وهذا مذهب الجمهور أيضًا، الجمهور يعني مذهب المالكية والشافعية والحنابلة وخالف في ذلك الأحناف وعندهم بعض الضوابط والقيود ليس هذا وقت ذكرها، واضح؟

فليس له ماذا؟ ليس له أن يقتلَ أسيرهم ولا تُسبى ذراريهم، يعني لا تسبى نساؤهم ولا أبناؤهم لأنهم مسلمون مثل أي مسلم آخر ارتكب كبيرةً من الكبائر، هذا هو حكمهم، ولا

---

[١] يجهز عليه ويسرع في قتله.

تُغنَم أموالهم، أموالهم هذه لا تغنم لماذا؟ لأن الشرع إنما أحل دماءهم فقط للضرورة، وأما أموالهم فتبقى على أصل الحرمة، ولهذا فلا يصح أن نقول أن من استُحِل دمُه استُحِل ماله، لا، قد يبيح الشرع دم شخصٍ ولكن يحرم ماله.

فأموالهم مصونة محرمة لا يجوز أن تغنم، نعم يجوز للإمام أن يأخذها وأن يحفظها عنده وتبقى محفوظة لأهلها وأصحابها إلى أن ينكفَّ شرهم وتنكسر شوكتهم وتنتهي فتنتهم، فعندها يرد هذا المال إلى أهله، أما أن يأخذ هذا المال وأن يُقسمه بين المسلمين كما يُقسم المال فهذا لا يجوز له، واضح؟

إذًا هذا مُجمل أحكام البغاة.

فقال الله عز وجل هنا: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا}، انتبهوا لما في هذه الآية، الآية ذكرت قتالَين، قتالًا قبل الصلح وقتالًا بعد الصلح، القتال الأول هو إخبار، والقتال الثاني هو أمرٌ، الأول: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا}، والثاني: {فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا} هذا أمرٌ، صحيح؟ إذًا القتال إذا كان قبل الصلح يعني إذا وقعَ قتالٌ بين طائفتين سوى طائفة الإمام -لأن الإمام ذكرنا التدرج الذي يكون بينه وبين أهلِ البغي- إذا كانت هناك طائفتان من المؤمنين وقع بينهما قتال إما على أمر الدنيا أو لشبهةٍ بينهما كل طائفةٍ تدَّعي أن الحق معها، فما لم يقع الصلح ما لم يقع محاولة الصلحِ فهذا القتال يعد قتال فتنة لا يجوز لأحدٍ أن يدخل فيه، واضح؟ لأن الأمر الأول الشرعي الذي أُمرنا به في طوائف المسلمين عند النزاع بينها هو ماذا؟ هو الصلح، فلذلك إذا رأينا مخايل وعلامات القتال أن هذه الطائفة تتأهب وتستعد وتتجهز للقتال والأخرى كذلك، فعلينا في هذه الحالة وجوبًا كفائيًا أن نسعى للصلح بين هاتين الطائفتين، فإذا حاولنا الصلح فعجزنا وظهرت لنا الطائفة الظالمة والطائفة المظلومة بعد ذلك يُشرَعُ لنا أن نقاتل مع الطائفة المظلومة كما قال النبي ﷺ: "انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا"[١]، إلى آخر الحديث الذي تعرفونه.

---

[١] رواه البخاري.

إذًا هذه هي مراحل التعامل مع القتال الذي يقع بين المسلمين، نسأل الله أن يعيذنا منه، فقال الله عز وجل: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} إذًا القتال بين طائفتين، والقتال بينهما لا يخرجهما عن الإيمان {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، كما قال النبي ﷺ -وهذا الحديث في الصحيح- كان يخطب على المنبر وبجانبه الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما، فكان ينظرُ للناس مرة وينظرُ إلى الحسن مرة فيقول النبي ﷺ: "إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ"[1]، وكان كما أخبر النبي ﷺ فأصلح الله بالحسن بين أهل الشام وأهل العراق، فالمقصود هنا أن النبي ﷺ سمَّى هاتين الطائفتين من المؤمنين، طائفة الشام التي كانت مع معاوية رضي الله تعالى عنه، وطائفة العراق والتي كانت مع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، والحسن هو الذي أصلحَ بينهما عندما تنازل عن الأمر لمعاوية رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

فقال الله عز وجل هنا: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} يعني اسعوا لنزعِ سبب القتال، لماذا؟ لأن هؤلاء إخوة كما قال الله عز وجل، أخٌ يتقاتل مع أخيه، فلا بد من نزع سبب القتال، يعني لماذا وقع هذا القتال ولماذا وقعت هذه الفتنة، فالمسلم عليه أن يسعى للإصلاح بين المسلمين لأجل كفِّ دمائهم، والإصلاح بين الناس يا إخوة أجرهُ عظيم جدًّا كما قال الله عز وجل: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [سورة النساء: ١٤٤]، لأن الإنسان قد يُصلح بين الناس رياءً وسمعة، ولكن من يفعل هذا الصلح ابتغاء مرضاة الله عز وجل هو الذي ينال هذا الأجر العظيم، وفي المقابل فإن إفساد ذات البين والتحريش بين المسلمين وبث أسباب العداوة والبغضاء والشحناء فإن هذا إثمه عظيمٌ عند الله عز وجل، كما قال النبي ﷺ: "إيَّاكُمْ وفسادَ ذاتِ البَيْنِ، فإنَّها الحالِقةُ[2]، لا أقولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ، ولكنْ تَحلِقُ الدِّينَ"[3]، فساد ذات البين أن تفسد القلوب وتتنافر وتقع

[1] رواه البخاري.
[2] رواه الترمذي من طريق أبي هريرة رضي الله عنه. وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوَجهِ.
[3] رواه الترمذي، من طريق أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ.

بينها الشحناء والبغضاء والعداوة فهذا يؤدي إلى البهت والكذب والسخرية والغيبة والنميمة والقتل أيضًا، فلا يبقى للمرء دينٌ بعد ذلك، فلهذا سماها النبي ﷺ الحالقة.

ويكفينا اليوم إن شاء الله هذا، وغدًا إن شاء الله نكمل الكلام عن هاتين الآيتين، وجزاكم الله خيرًا.

الحلقة الثالثة

وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٠)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

إن الحمد للهِ نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدهُ لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى من اهتدى بهديهِ وسارَ على سنته إلى يوم الدين، ثم أما بعد؛

فكنا قد تكلمنا من قبل ووقفنا عند قول الله عز وجل: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، وقلنا إن هذه الآية هي أصلٌ في تشريع قتال البغاة، ولو كانت الآية في أصلها لم تُشر إلى ما يذكره الفقهاء في تعريف البغاة، ولم تتعرض إلى تفاصيل أحكامهم أو أحكام قتالهم المتعلق بدمائهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم أيضًا.

ولكن هذا يُؤخذُ من مجموع الأدلة التي وردت في بيان حرمة المسلم وتعظيم حرمتهِ، وكذلك يُؤخذ من سيرة الصحابة رضوان الله عليهم فيما وقعَ بينهم من القتال، وقلنا إنَّ الفقهاءَ يعرِّفون الباغي بأنه الخارج على الإمام العدل بتأويل، وقلنا إن البغاة أحكامهم في الجملةِ أنه إنما يقاتَلون دفعًا لشرهم لا قصدًا لقتلهم، ولهذا بعض العلماء ذكرَ أنَّ الفرق بين قتال البغاة وبين قتال الكفار والمرتدين يصلُ إلى تسعة أو عشرة فروق، منها؛ الذي ذكرناه وهو أنَّ الكفار يُقصدون بالقتل ويُتعمد قتلهم، سواءٌ كانوا كفارًا أصليين أو كانوا

مرتدين، وأما البغاة فإنما يقاتلون على سبيلِ دفعِ الشرِ وكفِّ الضرر الذي يقعُ بسبب بغيهم.

ومنها؛ أنَّ الكفار يُقتلون مقبلين ومدبرين، وأما البغاة فلا يقتلون في حالِ إدبارهم، يعني في حال فرارهم من ساحة المعركة، ومنها أن الكفار يُجهَز على جريحهم وأما البغاة فإنهم لا يُجهَز على جريحهم.

ومنها؛ أنَّ الكفار يُقتل أسيرهم، وأما البغاة فالصحيح الذي عليه جمهور العلماء أنه لا يجوز قتل أسيرهم.

ومنها؛ أنَّ الكفار يجوز سبي نسائهم وأما البغاة فهم مسلمون ونساؤهم مسلمات فلا يجوز سبي نسائهم ولا ذراريهم.

ومنها؛ أنَّ الكفارَ تُقَّسَّم أموالهم، تُغنم أموالهم وتُقسَّم، وأما البغاة فلا يجوز تقسيم أموالهم، وإنما هي أموالٌ لمسلم لها حرمةُ مال المسلم الصالح التقي وهكذا أموال البغاة.

إذًا هذه مُجمل الفروق التي تكون بين قتال البغاة وبين قتال الكفار سواء كانوا مرتدين أو كانوا كفارًا أصليين.

فهذه الآية التي نحن في صدد الحديث عنها قال الله عز وجل فيها: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا}، هذا أي قتالٍ يقع بين طائفتين من المسلمين، وكما نعلم فإن دوافع القتال التي تقعُ بين المسلمين متعددة، قد تكون الدوافعُ شرعيةً بمعنى أن تكون هناكَ طائفة من قطاع الطرق المفسدين في الأرض الذين يصولون على دماء الناس ويسطون على أموالهم فقتال هؤلاء مشروعٌ وقد أمرَ بهِ الشرع، وقد يكون دافع القتالِ على أمرٍ من أمور الدنيا كقتال العصبية الذي يقع بين القبائل وبين طائفتين من المؤمنين، فهذا قتال مذموم، والقاتل والمقتول فيهِ في النار، وهو الذي يشمله قول النبي ﷺ: "إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ"[1]، لماذا؟ لأن قتالهم على أمرٍ من أمور الدنيا.

[1] رواه مسلم.

الأمر الثالث: قد يقع القتال بين طائفتين من المسلمين في حقٍّ ملتبس، يعني لا يميز مَن المصلح فيهم ومَن المبطل، مَن المحق فيهم ومَن الظالم ومَن المظلوم، الحق ملتبس، وكل طائفةٍ منهما تدَّعي أن الحق في جانبها، فهؤلاءِ يحرم وقوع القتال فيما بينهم، وقد يكون بعضهم معذورين بتأويلهم في ما يدعونه من الحق.

إذًا أسباب وقوع القتال متعددة بين المسلمين، وهذه الآية التي تتكلم عنه هنا هو القتال الذي يقعُ على غير الصفة المشروعة، يعني إما على أمرٍ من أمور الدنيا أو يقع قتال في أمرٍ ملتبس الحق فيه، الحق ليس مبينًا ليس واضحًا، فهنا قال الله عز وجل: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا}، فأمرَ المسلمين الآخرين بالسعي للإصلاح بين هاتين الطائفتين، والإصلاح إنما يتمُّ بتبيين مَن هو صاحب الحق ومَن هو الظالم ومَن هو المظلوم، والصلح إنما يقع بتنازل أحد الطرفين عن حقه أو عن شيءٍ من حقه، وأما إذا تمسك كل طرفٍ بحقه وتشبث به وتعصب إليه فلا يمكن أن يقع الصلح.

الشاهد هنا أن الواجبَ على المسلمين عند وقوع قتالٍ بين طائفتين منهم أن يسعوا وأن يبذلوا قصارى جهدهم للإصلاح بين هاتين الطائفتين وإيقاف القتال، وهذا الصلح كما ذكرنا من قبل أجرهُ عظيمٌ عند الله عز وجل كما قال النبي ﷺ: "أَلَا أدلكم على ما هو أفضل من درجةِ الصيامِ والصلاةِ والزكاة؟ -قال:- الإصلاح بين الناس"[١]، وكما قال الله عز وجل: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ} [سورة النساء:١١٤]، ولهذا فالشرع دائمًا يحرصُ على الصلح حتى في المشاكل الخاصة التي تقع بين الرجل وأهلِه، حتى وحضَّ على الصلح {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} [سورة النساء:١٢٨]، فالصلح أمرٌ محمود ومطلوب، والشريعة تحثُّ وتحضُّ عليه، فالمسلمون مطالبون بأن يسعوا لنزع فتيل الحرب الذي يقع بين طائفتين من المؤمنين.

[١] رواه أبو داود، والترمذي وقال: هذا حديث صحيح.

إذًا هذا هو الأمر الأول والمرحلة الأولى التي يجب على المسلمين أن يقوموا بها وهي السعي لإيقاف القتال وإصلاح ذات البين الذي أجج وحصل بسببه القتال، قال الله عز وجل: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا} فإن بغت؛ البغي الذي يقع هنا فسَّره العلماء بواحدٍ من أمرين، قالوا إما أن يكون البغي بعدم إذعان إحدى الطائفتين للصلح أصلًا، يعني بعد أن يسعى الناس للإصلاح وتقبل إحدى الطائفتين وتقول أنا مستعدة للصلح وأن أتنازل عن شيءٍ من حقي إلا أن إحدى الطائفتين تستمر في القتال ولا تذعن لمطالب المصلحين، فهذا هو البغي، يعني البغي بعدم إيقاف القتال مع وجود سببِ الإيقاف من الطرف الآخر ومع وجود السعي من المسلمين، واضح؟

وبعضهم فسَّر البغي بأنه بعدما حصلَ الصلح وتوقف القتال وواحدةٌ من الطائفتين تنازلت عن حقها وأرادت وقف القتال {بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ} يعني نشبت وأعادت القتال مرةً أخرى بعد الصلح، بعد حصول الصلح، واضح؟

فإذًا قول الله عز وجل هنا {فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا} يحتمل يعني بغت استمرت في بغيها وعدم إذعانها للصلح مع وجود سببه، أو إنها بغت يعني نقضت الصلح وأعادت القتال للطائفة الأخرى بعدما اتفق الجميع على المصالحة.

{فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي} إذًا هذه هي المرحلة الثانية وهي قتال الطائفة الباغية التي تبيَّن ظلمها و ظهر أنها تريد القتال وتستمر في سفك دماء المسلمين مع ظهور أن الظلم في طرفها بعدم انقيادها للصلح أو بنقضها له، فهمتم هذا يا إخوة؟

قال الله عز وجل: {فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي} إذًا هنا انظر في الأول أمرنا الله سبحانه وتعالى بالسعي لإيقاف القتال، وهنا أمرنا بالقتال، بالدخول في القتال لماذا؟ لأن هناك من الأمراض والفساد ما لا يحسم إلا بالقتال، يعني هذه طائفة سعى الناس للإصلاح وتنازلت الطائفة الأخرى وظهر مَن هو صاحب الحق ومع ذلك هي تبغي وتسفك دماء المسلمين،

هذه أصبحت لا حلَّ لها ولا طريقة لكف شرها إلا بقتالها وهو أمرٌ شرعي، وهنا إما أن يكون هناك للمسلمين إمامٌ يقوم عليهم فالواجب القتال مع الإمام ضدَّ الطائفة الباغية.

فقال الله عز وجل: {فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ} تفيء يعني ترجع، حتى تفيء ترجع إلى أمر الله، وأمر الله قال العلماء هنا إما أنه المقصود به حكم الله عمومًا أو أنه ترجع إلى الصلح خصوصًا، إما أنه الصلح الذي نقضته ابتداءً، أو الصلح الذي أبت أن تذعن له وتنقاد له في أول الأمر يعني، واضح الكلام؟

{حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ فَاءَتْ} فإن فاءت خلاص، فإن قالت هذه الطائفة أنا أستسلم وأنا أذعنت للصلح وأنا أنزل عند حكم الله عز وجل {فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ} فبعد ذلك عليكم أن تسعوا للإصلاح بين هاتين الطائفتين، ولكن هذا الإصلاح يكون بالعدل، لا يكون فيه إجحاف وظلم وهضم لحقوق الآخرين وإنما بما توجبه الشريعة، بما توجبه شريعة الله عز وجل، {فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا} وأقسطوا يعني واعدلوا في صلحكم {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} وهذه منقبةٌ عظيمة لأهل العدل أن ينالوا محبة الله عز وجل {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

ثمَّ بيَّن الله سبحانه وتعالى العلة أو السبب الذي يدفع المسلمين للإصلاح، قال الله عز وجل: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}، كيف يحصل القتال وسفك الدماء بين أخوين هذا مسلم وهذا مسلم، يجمعُ بينهم دينٌ واحد وعقيدةٌ واحدة وشريعةٌ واحدة وحكمٌ واحد فالواجب أصلًا على أهلِ العقيدة الواحدة أن يكونوا كالبنيان يشد بعضهم بعضًا، لا أن يكونوا متنافرين متنازعين ومتقاتلين متحاربين، هذا على خلاف ما يوجبه عليهم الشرع، فقال الله عز وجل هنا: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} فالمؤمن أخو المؤمن، المسلم أخو المسلم أينما كان، سواء كان من وطنك أو من غير وطنك، قريبًا أو بعيدًا، فقيرًا أو غنيًّا، فاسقًا أو صالحًا، ما دام هذا الإنسان باقيًا على دين الله عز وجل فلا بد أن يكون هناك رابطة أخوَّة الإيمان، نعم تضعف وتقوى، إذا كان هذا الرجل تقيًّا صالحًا فولاؤنا له وأخوَّتنا له ومحبتنا له بقدر ما عنده من الإيمان والتقوى والصلاح، وإذا رقَّ دينه وارتكب

شيئًا من معصية الله عز وجل فمحبتنا له وأخوَّتنا له تنقص بقدر مخالفته لدين الله عز وجل، أما انقطاع حبلُ الأخوَّة تمامًا فهذا لا يمكن أن يكون بين مسلم وبين مسلم آخر.

ولذلك هذه هي الرابطة التي أرادَ الله عز وجل أن تكون بين الناس وهي رابطة الإيمان، فالذين يريدون الآن أن يستبدلوا هذه الرابطة بروابط أخرى كرابطة القومية أو رابطة الوطنية أو رابطة المصالح المشتركة أو غير ذلك، هؤلاء يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير.

الله سبحانه وتعالى جعلَ لنا رابطةً واحدة، وهذه الرابطة هي التي ينتفع بها الناس يوم القيامة {الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [سورة الزخرف: ٦٧] مَن كانت أخوَّته وصحبته لأخيه من أجل أمور الدنيا أو لأجل العرقية أو الوطنية أو القومية فهذا سيكون عدوًّا له يوم القيامة، ليس فقط يفارقه وإنما يكون عدوًّا له {الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} بينهم العداوة في ذلك اليوم، فإذًا الرابطة التي علينا أن نعززها و أن نقويها وأن نحرص عليها وأن نذبَّ عنها وأن نوالي عليها وأن نعادي عليها هي رابطة أخوَّة الإيمان، المسلم هو أخوك، فقال الله عز وجل هنا: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} و(إنَّمَا) كما تعلمون من أدوات الحصر، كأنه لا إخوة إلا المؤمنون، كأن الآية تقول لنا هذا {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} والنبي ﷺ قد ذكر هذا في أحاديث متعددة كما قال النبي ﷺ: "الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ"[١]، وقال النبي ﷺ: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ"[٢] هكذا ينبغي أن تكون علاقة المسلم مع أخيه المسلم، نعم تقع بينهم العداوة ويقع بينهم الشحناء ويقع بينهم الأهواء ولكن رابطة الأخوَّة لا بد أن تبقى، وما ينبغي للمسلم أن يعامل أخاه المسلم كما يعامل الكافر، ولذلك النبي ﷺ جعل قتال المسلم لأخيه المسلم كفرًا، لأن هذا هو عمل الكفار فيما بينهم، هم الذين ليس بينهم روابط كما قال النبي ﷺ: "لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ"[٣]، وكما قال النبي ﷺ:

---

١ رواه البخاري.

٢ رواه مسلم.

٣ رواه البخاري.

"سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ"[١]. إذًا هذه هي الرابطة العظيمة التي علينا أن نوطدها وأن نقويها وأن نحرص عليها وأن نُدافع عنها حتى ننال رحمة الله سبحانه وتعالى.

الله سبحانه وتعالى قال: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} فكيف يقع بينهم هذا التقاتل وسفك الدماء والعداوات على شيء من أمور الدنيا؟

{فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} إذًا على المتقاتلين أن يعلموا أنهم إخوة، وعلى المصلحين أن يعلموا أنهم يسعون للإصلاح بين الإخوة {فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}. وتأملوا يا إخوة؛ لم يقل الله سبحانه وتعالى فأصلحوا بين إخوانكم مع أنه يتكلم عن جمع، قال: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} جمع، المؤمنون جمع ليس فردًا واحدًا، صحيح؟ ثم قال: {فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} مثنى، أخ وأخ، صحيح؟ قال العلماء: (لأن هذه الطائفة كالجسد الواحد، كالجماعة الواحدة)، كأنها إنسانٌ واحد، وهذه الطائفة المعادية التي تقاتلها كذلك كالإنسان الواحد، فأنت كأنك تصلح بين أخوين، هذه طائفة شخصٌ واحد وهذه الطائفة شخصٌ واحد، يعني هذا التجمع كأنه شيءٌ واحد.

فلذلك ينبغي أن يكونوا كحال الأخوين في البيت الواحد، ونحن نعلم إذا وقعت شحناء أو عداوة في داخل البيت الواحد مباشرة سيسعى الإخوة للإصلاح.

فقال الله عز وجل هنا: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ} فعليكم أن تتقوا الله عز وجل في هذا الإصلاح، فلا تميلوا مع طائفة ولا تجحفوا بحق طائفة أخرى، وإنما عليكم أن تتقوا الله عز وجل، وأن يكون إصلاحكم بينهم بالعدلِ، {وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} فرحمة الله عز وجل إنما تنال بالاتفاق وبالألفة وبالأخوَّة وبالاجتماع.

نسأل الله أن يجعلنا ممن يستمع القول فيتبع أحسنه، وأن يجعلنا من الراشدين، وأن يجعلنا ممن يحيا على الصراط المستقيم ويموت على الصراط المستقيم، إنه سميع قريب.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

[١] رواه البخاري ومسلم.

الحلقة الرابعة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدهِ الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدهُ لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى من اهتدى بهديه وسارَ على سنته إلى يوم الدين، ثم أما بعد؛

فكنا بالأمس قد تكلمنا عن الآيةِ التي تتحدث عن الإصلاح بين طوائف المسلمين فيما لو وقعَ بينهم القتال، وبيَّنا أن الله عز وجل قد ذكرَ القاعدة العامة التي تجمعُ بين المؤمنين وهي أخوَّة الإيمان، هذه الرابطة وهذه الآصرة التي يجب على المسلمين أن يحافظوا عليها وأن يقووها وأن يبحثوا عن أسبابِ تدعيمها وأن ينبذوا عنهم كل ما يوهنها ويضعفها ويؤدي إلى قطعها.

فقال الله عزَّ وجل: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}، فهم إخوةٌ، سواءٌ في حالة المسامحة أو في حالة العداوات التي تقع بينهم والشحناء التي تكون في قلوبهم والبغضاء التي قد تمتلأ منها صدورهم، إلا أنهم مع ذلك إخوة تجمعهم عقيدة واحدة ودينٌ واحد.

إذًا هذه هي الرابطة التي تقومُ عليها وتتأسسُ عليها العلاقةُ بين الإنسانِ وبين أخيه المؤمن، سواءٌ كان هذا المؤمن قريبًا أو بعيدًا، سواءٌ كان شريفًا أو وضيعًا، سواءٌ كان أسودَ أو أبيضَ، سواءٌ كان غنيًّا أو فقيرًا فهو مؤمنٌ وله حق أخوَّة الإيمان {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}.

بعد هذه الآيات ذكرَ الله سبحانه وتعالى بل نهى الله سبحانه وتعالى عن أمراضٍ مستفحلة إذا دبَّت في المجتمع المسلم وإذا انتشرت بين أفراده فإنها تؤدي بلا شك إلى ذلك المرض العظيم وتلك النتيجة السيئة التي كنا نتحدث عنها من قبل وهي الاقتتال الذي يقع بين المؤمنين.

قال الله عزَّ وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}.

نادى الله سبحانه وتعالى المؤمنين بهذه الصفة التي لها مقتضيات ولها لوازم وعليهم أن يُحققوها بأعمالهم التي هي طاعة الله عزَّ وجل واجتناب ما نهى الله عزَّ وجل عنه، فمما نهى الله سبحانه وتعالى عنه المؤمنين إن كانوا مؤمنين والذي عليهم أن يلتزموا به هو أن يسخرَ بعضهم من بعض، والسخرية هي الاستهزاء بالآخرين وهي احتقارهم وازدراؤهم، فقال الله عز وجل هنا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ} يعني لا يستهزئ قومٌ من قوم آخرين، ولا يحتقر قومٌ قومًا آخرين، وهذه السخرية سواءٌ كانت بالقولِ أو بالفعل أو بالإشارة أو بكل ما يفهم استنقاص أخيك المسلم وبكل ما يفهم احتقار أخيك المسلم وبكل ما يفهم ازدراء أخيك المسلم فهذا كله نهى الله سبحانه وتعالى عنه بهذه الكلمات، وإلا فهذا المسلم الذي أنت تسخر منه وتزدريه وتحتقره وتظن نفسك أفضل منه، قد يكون أفضل عند الله عز وجل، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: {عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ} فإن الخيرية الحقيقية هي المنزلة التي ينالها العبد عند الله عز وجل، أنت قد ترى هذا الإنسان فقيرًا ضعيفًا وربما عاصيًا لله عز وجل، وقد تراه قبيحًا وقد تراه وضيعًا في شرفهِ فتحتقره

وتزدريه وتترفع عليه وتظن نفسك خيرًا منه، وتكون منزلة هذا الإنسان بحسب خشيته لله ومراقبته لله سبحانه وتعالى ومحبته لله عزَّ وجل أضعاف أضعاف ما تظنه أنت في نفسك.

ونضرب لذلك مثلًا من سنة النبي ﷺ ونحن نتكلم عن احتقار المسلم، يعني أن مجردَ وقوع الإنسان في المعصية هذا لا يدفع المسلم إلى أن يحتقره وأن يزدريه وأن يمتهنه، كان هناك رجلٌ من الصحابة يداعب النبي ﷺ معروفًا بكثرة مزاحه وكان يُضحك النبي ﷺ، هذا الصحابي كان يشرب الخمر كثيرًا، فيشرب الخمر ثمَّ يُؤتى به فيُجلد -يقام عليه الحد- فيرجعُ مرةً أخرى ويشرب الخمر ثمَّ يُجلد، فمرةً من المرات جيء به وقد شرب الخمر فالنبي ﷺ أمر الصحابة أن يجلدوه أن يقيموا عليه الحد، فقال أحد الصحابة: (لعنه الله ما أكثر ما يُؤتى به)، يعني في كلِّ مرةٍ يُجلد ويشرب الخمر يُجلد ويشرب الخمر ويشرب الخمر ألا يتقي الله ألا يستحي من نفسه؟ فلعنه غضبًا لله عز وجل، فالنبي ﷺ سمع هذه الكلمة، فقال: "لَا تَلْعَنْهُ، أما إني قد علمتُ أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ"[١]، انظر! رجل يشرب الخمر بل يكرر شرب الخمر والنبي ﷺ في الأحاديث الصحيحة لعنَ في الخمر عشرة، منهم مَن؟ شاربها، النبي ﷺ لعن شارب الخمر وهذا الصحابي إنما قالها حمية لله عز وجل، فالنبي ﷺ أخبر الصحابي عن أمرٍ في قلب هذا الإنسان بإخبار الله عز وجل وإطلاعه لنبيه عليه، هذا الصحابي لم يعلمه ولم يطَّلع عليه وهو محبة هذا الصحابي الذي كان يشرب الخمر لله عزَّ وجل وللنبي ﷺ فكانت هذه المحبة منعت من لعنه، فكذلك الإنسان قد ترى أنت إنسانًا صاحب معصية وصاحب مخالفةٍ لأمر الله عز وجل فتأخذك الحمية فتقول كلمةً، والأشد من ذلك هو احتقارك لهذا المسلم، الاحتقار شيءٌ غير الإنكار، يعني تنكر نعم على هذا العاصي وتُحذر منه وتبين ما هو فيه من مخالفة أمر الله عزَّ وجل وتهجره إن احتاج إلى الهجران، ولكن هذا شيء لأنه بضوابط شرعية وبأصول شرعية وبآداب شرعية واحتقاره وازدراؤه شيءٌ آخر، لماذا؟ لأن الإنسان كما ذكرنا بالأمس الإيمان عندنا نحن قولٌ وعمل يدخل فيه الأعمال الظاهرة ويدخل فيه أعمال القلوب، وتفاوت العباد الحقيقي بما في قلوبهم من محبة الله عز وجل ومن خشيته ومن رهبته ومن مراقبته ومن شكره ومن

---

[١] رواه البخاري وابن نعيم في معرفة الصحابة.

التوكل عليه والإنابة إليه والحياء منه سبحانه وتعالى، فهذه الأعمال التي في القلوب لا تطلع عليها أنت ولا يطلع عليها غيرك، فربما أنت تزدري الإنسان وتحتقره بحسب ما ظهر لك من أعماله الظاهرة، هذا إذا كان عمله مخالفةً لأمر الله عزَّ وجل ولكن يخفى عليك ويغيب عنك شيءٌ عظيم من أعمال القلوب التي تكون في قلب هذا الإنسان.

إذًا علينا أن نحترز من احتقار الآخرين ومن ازدرائهم، فكيف إذا كان هذا الاحتقار والازدراء مبنيًّا على أمرٍ من أمور الدنيا ليس غضبًا لله عز وجل، يعني إنسان يحتقر إنسانًا لأنه قبيحٌ في منظره، إنسانٌ يحتقر إنسانًا ويسخر منه لأن ثيابه رثَّة، إنسان يحتقر إنسانًا آخر لأنه فقير، إنسان يحتقر إنسانًا آخر لأنه جاهل، إنسان يحتقر إنسانًا آخر لأنه وضيع في نسبه، هذه كلها لا قيمة لها في ميزان الله عز وجل.

فالإنسان عليه أن يعرف قدره، وسخريتك بأخيك المسلم واحتقارك له هو وضعٌ من شأنك أنت، لماذا؟ لأنك ارتكبت عملًا قبيحًا في دين الله عزَّ وجل، فقد يكون هذا الإنسان صاحب توبة صاحب إنابة وأنت في نفس الوقت تعصي الله عز وجل باحتقاره، فقد وضعت من منزلتك ومن مكانتك.

فقال الله عز وجل هنا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ}، لا يسخر طائفة من الناس بطائفة أخرى من الناس ولا يسخر رجل من رجل آخر، لماذا؟ {عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ}، يعني ربما يكون هؤلاء القوم المسخور منهم خيرًا ممن سخر منهم، خيرًا عند مَن؟ عند الله سبحانه وتعالى، وهذا هو الأمر الذي لا يطلع عليه إلا الله عز وجل علام الغيوب.

{وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ}، يعني ولا يسخر نساءٌ من نساء، قال العلماء: كلمة القوم في الأصل تشمل الرجال والنساء هذا عند بعض أهل اللغة يقولون هذا، وبعضهم قال: نحن نعلم في عرف الشرع إذا خاطب الله المؤمنين وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} يدخل فيه الرجال والنساء كأي تكليف شرعي، إلا أن الله عز وجل في هذا الموضوع أفرد ذكر النساء عن ذكر القوم، لماذا؟ قالوا لأن السخرية في النساء بعضهن من بعض أكثر من سخرية الرجال بعضهم من بعض، فالله عزَّ وجل خصهن بالذكر لما ينتشر بينهن

من الازدراء لبعضهن والاحتقار لبعضهن والسخرية لبعضهن وتحقير بعضهن، فقال الله عز وجل هنا: {وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ} يعني ولا يسخر أو ولا تسخر نساءٌ من نساء سواء كان بسبب جمالها أو بسبب مالها أو بسبب شرفها أو بسبب حسبها أو بأي سبب من الأسباب الأخرى، لماذا؟ السبب واحد {عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ} يذكر بعض المفسرين هنا أن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت للنبي ﷺ وهذا يذكرونه هنا ويذكرونه أيضًا في باب الغيبة قالت للنبي ﷺ: (حسبك من صفية أنها هكذا)، وأشارت إلى قصرها يعني يكفيك عيبًا في صفية رضي الله تعالى عنها وعن عائشة أنها قصيرة، فقال النبي ﷺ لعائشة: "لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ"[1]، يعني هذه الكلمة البسيطة التي تلفظتِ بها لو مُزجت لو خلطناها بماء البحر لغيرت طعم ماء البحر، لماذا؟ لأنها يعني شيء عظيم هذا الأمر الذي تكلمتِ به.

فإذًا الإنسان عليه أن يتجنب هذا الخلق السيئ، احتقار الآخرين والمؤمنين هذا ليس من خلق أهل الإسلام، كما قال النبي ﷺ: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ"[2]، والنبي ﷺ قال: "بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ"[3]، يعني يكفيك من الشر الذي تستحق عليه العقوبة من الله عز وجل أن تحتقر أخاك المسلم، هذا يكفيك لا تحتاج معه لذنب آخر، هذا يدل على ماذا؟ يدل على أن احتقار المؤمنين كبيرة من الكبائر، يعني أن من يرتكب هذا الفعل هو فاسق، لأن الفاسق هو مرتكب الكبيرة، فالإنسان عليه أن يحفظ عليه دينه، وقلنا لا نخلط بين الأمرين، الإنسان قد يكون عاصيًا لله عز وجل وقد يكون مرتكب لكبيرة من الكبائر وقد يكون مرتكبًا لبدعة من البدع، نعم هذا الإنسان نُحذر منه وننصحه وننكر عليه ونهجره ويُعاقب إذا استحق العقوبة، هذه كلها أشياء جاء بها الشرع ولكن هذا شيءٌ واحتقاره وازدراؤه شيءٌ آخر، لماذا؟ لأن الاحتقار يكون مبنيًّا على أعمال الإنسان كلها، يعني عندما تريد أن تقوّم هذا الإنسان وأن تعطيه قيمته ومنزلته إما أنك ترفعه وإما أنك تضعه هذا لا بدَّ أن تجمع بين

[1] رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

[2] رواه مسلم.

[3] رواه مسلم.

خصال هذا الإنسان كلها وخصاله منها ما هو ظاهر ما تراه أنت، سواء من صفات حسنة أو من صفات سيئة، ومنها ما هو باطن لا تطلع عليه أنت، قد يكون هذا الإنسان محبًّا لله عز وجل معظمًا لله عز وجل مستحيًا من الله عز وجل بما يفعله من الموبقات، فكم من ذنبٍ أورث طاعة، كم من ذنبٍ يرتكبه الإنسان فبعد ذلك يندم ويستحيي من الله عز وجل ويكثر من الاستغفار وينكسر بين يدي الله عز وجل فيرفعه الله درجات، بماذا؟ بسبب هذا الاستغفار وهذا الحياء، فعلينا أن نعطي الناس حقهم وأن نتجنب احتقار المسلمين، فقال الله عز وجل هنا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} يعني ولا تعيبوا ولا يعِب بعضكم بعضًا، اللمز هو إظهار عيب الإنسان إما أن يكون باللسان وإما أن يكون بالإشارة وإما أن يكون بالفعل أو بأي طريقة تعيب بها هذا الإنسان تظهر عيبه في المجالس وبين الناس {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ}. قال العلماء: تأمل كيف قال الله عز وجل هنا {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} كيف يعيب الإنسان نفسه؟ وذلك لأن المسلمين كالجسد الواحد فأنت إذا عبت أخاك المسلم فكأنك عبت نفسك هذا واحد من الأقوال، أو أن عيبك لأخيك المسلم يؤدي إلى عيبه لك يعني عندما تذكر ما فيه من العيوب وما فيه من النقائص فتأخذهُ الحمية ويرد عليك بمثلها فأنت كنت السبب في عيب نفسك، فهو إما أن المقصود به أنه لا يعب بعضكم بعضًا كما قال الله عز وجل: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} [سورة النساء:٢٩]، هذه تشمل المعنيين يعني لا ينتحر الإنسان لا يقتل نفسه وكذلك لا يقتل أخاه المسلم لأنك حينما تسفك نفس أخيك المسلم فكأنما قتلت نفسك، لماذا؟ لأن المسلمين كما قلنا هم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمَّى والسهر، فالإنسان لا يعيب أخاه المسلم.

{وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ} يعني ولا يرمِ بعضكم بعضًا بالألقاب السيئة القبيحة، اللقب كما نعلم هو وصفٌ إما يتضمن مدحًا وإما ذمًّا، والمنهي عنه هنا هو الوصف الذي يكون ذمًّا لأخيك المسلم، يعني ولا تنابزوا بالألقاب لا يصف بعضكم ولا ينادِ

بعضكم بعضًا بألقابٍ يكرهها، يكرهها هذا الإنسان كالأعرج أو الأعمش أو القصير أو الأسود مما يكرهه هذا الإنسان.

فقال الله عز وجل هنا: {وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ} ويدخل في ذلك مناداة المسلم لأخيه المسلم يا فاسق يا كافر يا مجرم إذا لم يكن فيه هذا الوصف كما قال النبي ﷺ: "أَيُّمَا امرِئٍ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَد بَاءَ بِهَا أَحَدُهُما، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ"[١]، يعني إذا كفَّر الإنسان أخاه المسلم فإذا كان هذا المُكفَّر حقيقي يعني يستحق التكفير فذاك هو، وإلا فرجع الأمر على قائله، واختلف العلماء في معنى هذا الحديث على سبعة أو ستة أقوال.

فالمقصود هنا أن المسلم لا ينادي ولا ينبز أخاه المسلم بلقب يكرهه.

وقال الله عز وجل: {وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ}، يعني قبح الاسم الذي هو الفسوق بعد أن تتصفوا بالإيمان، هذا يحتمل معنيين كما ذكر العلماء؛ إما أنه بئس أن تصف أخاك المسلم بالفسوق بعد أن اتصف بالإيمان، وإما أنك أنت بمناداتك لأخيك المسلم بلقبٍ يكرهه قد أوقعت نفسك في الفسق، فبئس ما أوقعت نفسك فيه بعد إيمانك وبعد صلاحك.

{بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، يعني فمن بلغه هذا ولم يتب عن هذه المعاصي ولم يقلع عنها فقال الله عز وجل: {فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، جاء بصيغة الحصر كأنه لا ظالم إلا من فعل هذا، وهذا يدلنا على عظم هذه الأفعال، {بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} وهذه الأعمال كما نعلم هي من حقوق العباد، فالتوبة منها تحتاج إلى أن يُسقط الإنسان حقه، فلذلك الإنسان الذي يحتقر أخاه المسلم أو الذي ينادي أخاه المسلم أو الذي يلمز أخاه المسلم هذا يحتاج إلى توبة صادقةٍ لله عز وجل يندم فيها ويعزم فيها على عدم الرجوع ويقلع عن ما فعل ويدعو لأخيه في ظهر الغيب.

---

[١] رواه البخاري ومسلم وأحمد بألفاظ متقاربة.

ونقف عند هذه الآية، وغدًا إن شاء الله نتكلم عن الآية الأخرى.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الحلقة الخامسة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرورِ أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدهِ الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدهُ لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ثم أما بعد؛

كنَّا قد تكلمنا بالأمس عن قول الله عزَّ وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِن نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، وقلنا إن هذه الآية قد نهت عن ثلاثة أخلاقٍ ذميمة يجب على المسلم أن يتجنبها، أولها هي السخرية من أخيه المسلم، والأمر الثاني هو التنابز بالألقاب، والأمرُ الثالث هو اللمز.

وقد فصَّلنا الكلام في هذه العيوب الثلاثة وقلنا لا يصلحُ للمسلم أن يحتقر أخاه المسلم وهو الذي تجمعه به عقيدة الإسلام وأخوَّة الإيمان ورابطة التوحيد.

ثمَّ قال الله عزَّ وجل بعد ذلك: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}.

كما ذكرنا في أول السورة، فإن هذه السورة تُبيّن الأسس والقواعد التي يقوم عليها المجتمع المسلم في التعامل وفي العلاقات فيما بينهم، فأمرت بأخلاقٍ يجب على المسلمين أن يأخذوا بها كما قال الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا}، ونهت عن أخلاقٍ وحذَّرت منها وأمرت المسلمين أو المؤمنين أن يجتنبوها، فمن هذه الأخلاق الذميمة التي يجب على المسلم أن يتورع عنها هو سوءُ الظنّ بإخوانه المسلمين، قال الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}، فحتى لا يقع الإنسان في هذا البعض الذي هو معصيةٌ لله عزَّ وجل والذي هو أذيةٌ لأخيه المسلم، فينبغي له أن يجتنب كثيرًا من الظن، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: {اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}.

وذكرَ العلماء للظن المذموم ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن يكون هذا الظن في حقِّ المسلم وليس في حقِّ الكافر، كما قال الله عزَّ وجل هنا: {اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ} أي في حقِّ إخوانكم من المسلمين.

الأمر الثاني: هو أن يكون هذا الظن أو هذا الظن المنهي عنه هو الذي يستقر في القلبِ ويثبت ويحققه صاحبه حتى يصبح كاليقين فيبني عليه تصرفاته وعلاقاته مع إخوانه، أما الهواجس والخواطر التي تعبُر بنفس الإنسان عبورًا ولا تستقر ولا يبني عليها شيئًا فالإنسان لا يؤاخذ على هذا الأمر.

الأمر الثالث: أن يكون هذا في من ظاهرهُ الصلاح والتقوى، وأما المجاهر بالمعصية والذي يُدخل نفسه في مواضع الريبة والشك فهذا هو الذي أوقع نفسه في دائرة التهمة، وقال الله عز وجل هنا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ}، والنبي ﷺ قال: "إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ"[١]، وكثيرًا ما يتعامل الإنسان مع ما يقع في نفسهِ من الظنون والأوهام وربما يبني عليها أحكامًا قد يكون هذا الحكم تفسيقًا أو تكفيرًا أو هجرانًا لأخيه المسلم وربما غيبةً وربما تحذيرًا من أخيه المسلم إلى غير ذلك مما

[١] رواه البخاري ومسلم.

يُبنى على هذا الظن، فإذا تحقق من هذا وبحثَ عنه وتفحصه وجده مجرد وهم و مجرد ظنون لا أصلَ لها في الواقع.

فقال الله عزَّ وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}، وتأملوا الترتيب الذي سارت عليه هذه الآية فأولًا نهت عن الظن وهي الخواطر التي تقع في قلب المؤمن، ثمَّ ماذا؟ فإذا الإنسان أصابه ظن سوء بحق أخيه المسلم، يعني ظننت بأخيك المسلم ظنًّا سيئًا فبعد هذا الظن سيدعوك للتحقق منه، يعني ستحاول أنت أو يحاول هذا الإنسان الظان بأخيه سيحاول أن يتفحص وأن يتحقق من صحةِ هذا الظن، فهذا يدعوه إلى ماذا؟ إلى التجسس، يدعوه إلى التجسس، ولهذا قال الله عزَّ وجل بعد النهي عن الظن نهى عن التجسس قال: {وَلَا تَجَسَّسُوا} يعني ما دام أخوك المسلم مستورًا فدعه على حالة ستره، وأما البحث والتفحص ومحاولة التنقيب من هنا ومن هنا في أمور ليست لك بها علاقة ولا يتعلق بها حكمٌ شرعي تحتاجه فهذا أمرٌ منهي عنه.

النبي ﷺ قال: "لَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَسَّسُوا"[١]، بعض العلماء قال: إن التجسس يكون في أمور الشر والتحسس يكون في أمور الخير كما قال الله عز وجل: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ} [سورة يوسف:٨٧]، وبعض العلماء قال: يُطلق كل منهما على الآخر، يعني يطلق على التجسس بأنه تحسس ويطلق على التحسس بأنه كذلك تجسس.

فالله عزَّ وجل هنا نهى عن التجسسِ، ولكن التجسس الذي يكون في حق المؤمنين الذي يكشف عن عورات المسلمين ويبحث عن عيوب المسلمين ويحاول أن يطَّلع على خفايا أخطاء هؤلاء المسلمين.

أما من جاهر فهذا لن تتجسس عليه لأنه أعلن بمعصيته ومخالفته لأمر الله عز وجل، إذًا التجسس المنهي عنه هنا هو التجسس الذي يكون بحثًا وتنقيبًا عن عيوبِ المسلمين وعن عورات المسلمين، النبي ﷺ قال: "يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ،

---

[١] رواه البخاري ومسلم.

لا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ , يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي عقر بَيْتِهِ"[١]. إذًا الإنسان منهي عن تتبع عورات المسلمين كما نهي أيضًا عن غيبة المسلمين.

وقلنا إن الذي يدعو إلى التجسس هو سوء الظن، فلهذا قال الله عزَّ وجل هنا: {وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا}.

ثمَّ نهى الله سبحانه وتعالى بعد ذلك عن الغيبة، وهي تكون نتيجة للتجسس، فالإنسان إذا ظنَّ بأخيه ظنَّ السوء، ثمَّ حاولَ أن يطَّلع أو يتحقق من صحةِ ذلك الظن الذي وقعَ في نفسه فهذا سيدعوهُ ويدفعهُ إلى التحدث عن أخيه المسلم بما يكره، وهذه هي الغيبة.

النبي ﷺ نهى عن الغيبة، وعندما سُئل عن الغيبة قال: "ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ"، قيل: (أرأيت إن كان في أخي ما أقول)، يعني أرأيت إن كان في أخي المسلم ما أقول فيه من العيوب، فيه بعض العيوب التي يمكن أن أتحدث بها، قال: "إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ"[٢]، إذًا البهتان أشدُّ من الغيبة، والغيبةُ نقلَ غير واحدٍ من العلماء على أنها كبيرةٌ من الكبائر، وهي محرمةٌ باتفاقِ العلماء وبدلالة الكتاب الصريحة وبدلالة السنة الصحيحة أيضًا، فقال الله عز وجل هنا: {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا}، والأحاديث في النهي عن الغيبة كثيرة.

فالله عز وجل هنا نهى عن الغيبة وضربَ مثلًا يُنفِّرُ من هذا العمل القبيح، والغيبة هي أعظم ما يفسد العلاقات بين المسلمين، الغيبةُ والنميمة، الغيبة هي أن تذكر أخاكَ في المجالس بما يكرهه والنميمة هو أن ينقل الإنسان كلام هذا لهذا وكلام هذا لهذا ليُفسد بينهما: "لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ"[٣]، و"لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ"[٤]، كما قال النبي ﷺ.

فهنا الله سبحانه وتعالى نهى نهيًا صريحًا عن الغيبة قال: {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا} ثمَّ ضربَ لهذه الغيبة مثلًا، قال: {أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا} هذه هي حالة

---

[١] رواه أحمد وأبو داود والترمذي. قال الحافظ العراقي: أخرجه أَبُو دَاوُد من حَدِيث أبي بَرزَة بِإِسْنَاد جيد وللترمذي من حَدِيث ابْن عمر وَحسنه..

[٢] رواه مسلم والترمذي.

[٣] متفق عليه.

[٤] رواه مسلم.

المغتاب، كحالةِ إنسان جلسَ على جثةِ أخيه وبدأ يُقطع لحمها ويأكلها وهذا الأخ هو إنسان ميت، هل هناك إنسان يمكن أن يقبل مثل هذه الصورة أو يشتهي مثل هذا اللحم، هذا هو حال المسلم الذي يغتابُ أخاه المسلم.

قال العلماء وجه التشبيه من أين؟ **أولًا:** هذا الأخ أنت تأكلُ لحمه فكذلك أنت تتحدث عنهُ فهذا الكلام الذي تقوله كأنك تأكل لحم أخيك.

ثانيًا: هذا الإنسان هو غائبٌ ليس موجودًا في مجلسكَ لا يدري بما تقوله أنت عنه فكذلك هذا الميت لا يدرك ما يقال عنه، واضح؟ فكأن هذا الإنسان الغائبُ هو إنسان ميت وأنت تأكل لحمه وتتفكه به.

فكما أن الإنسان يكره هذه الصورة وهو أن يأكل لحم أخيه المسلم الميت، فكذلك يجبُ عليه أن يكره الحديث أو أن يكره إعابة وعيب أخيه المسلم الغائب عنه.

فقال الله عزَّ وجل هنا: {وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا}، نعم لا يحب أحدنا أن يأكل لحم أخيه ميتا، {فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ}.

وذكرَ العلماء أن هناك بعض الحالات التي تجوز فيها الغيبة وذلك إذا كان هناك مقصود شرعي ولا يمكن الوصول إلى هذا المقصود الشرعي إلا بهذه الطريقة.

إذًا بضابطين، الضابط الأول أن يكونَ هذا الذي ستتكلم عنه هذا العيب ستذكره لمقصودٍ شرعيٍ معتبر، والضابط الثاني أنك لا تستطيع أن تتوصل إلى هذا المقصود إلا عبرَ ذكركَ أخاكَ بما يكره.

وذكر العلماء ست صور لهذا، نذكر بعضها؛

الحالة الأولى: هي حالة التظلم، قالوا لو أن إنسانًا ظلمَ إنسانًا أخذَ ماله أو ضربه ظلمًا أو لأيِّ نوع من أنواع الظلم فلهذا الإنسان أن يتكلم عمَّن ظلمه في الموضع الذي يحتاج فيه لبيان الظلم، مثلًا يذهب إلى القاضي ويقول: إن فلانًا ظلمني خانني أكل مالي إلى غير ذلك

من الأشياء التي يحتاج فيها لبيانه، المقصد الشرعي هنا هو استرجاع حقه، هذا مقصدٌ شرعي، صحيح؟ والأمر الآخر أنك تريد أن تبين حقيقة هذا حتى يحكم القاضي أو من أرادَ أن يحكم لك بما تستحقه.

والنبي ﷺ قال: "مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ، يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ"[١]، يعني الإنسان إذا كان غنيًّا يستطيع أن يقضي دينه ثمَّ بدأ يماطلُ في هذا الدين يطلبهُ الدائن ولكنَّ الغني يماطل، يعني يتأخر ويتقاعس في قضاءِ هذا الدين، فلهذا الإنسان أن يتكلم على هذا الغني ويقول هو ظلمني وأكل مالي و ما ردَّ ديني وإلى غير ذلك، إذًا هذه هي الحالة الأولى وهي حالة التظلُّم.

الحالة الثانية: في حالة الاستفتاء، يعني لو أن إنسانًا عنده نازلة، وجاءَ إلى أحدِ العلماء يستفتيه فيقول مثلًا: ضربني فلان أو خانني فلان أو ظلمني فلان في كذا وكذا فما الحكمُ؟ ليس قضاء ولكن هذا في الاستفتاء، يعني يبحث عن الحكم الشرعي الذي يتعلق بهذا الشخص، ففي هذه الحالة لا تعد غيبة، واستدل العلماء لهذه الحالة بأن هند رضي الله تعالى عنها وهي زوجة أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه جاءت إلى النبي ﷺ وقالت: (يا رسول الله إن أبا سفيان رجلٌ شحيح، لا يعطيني وأبنائي ما يكفيني أفآخذُ من ماله؟)، قال: "خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ"[٢]، واضح؟ إذًا هنا جاءت ووصفت زوجها بأنهُ شحيح يعني بخيل، واضح؟ ومع ذلك لم ينكر عليها النبي ﷺ.

الحالة الثالثة: التعريف، إذا كان هناكَ شخصٌ صاحب بدعة أو صاحب فسق أو صاحب فجور، أو جاءك شخصٌ يستنصحك في حق رجل لمعاملة ستكون بينهما وأنت تعلم صفةً ذميمةً في هذا الشخص فهنا يجبُ عليك أن تذكر ما تعتقده في هذا الشخص وأن تبين ما فيه من العيب ما دام يُبنى عليه مصلحة شرعية، وفي هذا أن النبي ﷺ جاءته امرأة وقالت خطبني فلان وفلان، يعني تستشيره مَن تتزوج منهما، الأول هو معاوية بن أبي سفيان، والثاني هو أبو جهم، فقال النبي ﷺ: "أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ"، ذكرهُ النبي ﷺ بما يعرفه من حاله، صحيح؟ وأما أبو جهمٍ فقال النبي ﷺ: إنه: "رَجُلٌ لَا يَضَعُ عَصَاهُ

[١] رواه البخاري.

[٢] متفق عليه.

عَنْ عَاتِقِهِ"، وفي رواية أخرى إنه: "ضَرَّابٌ لِلنِّسَاءِ"، فذكر النبي ﷺ ماذا؟ ذكر الصفتين اللتين تتعلقان بهذين الصحابيين حتى قال لها: "انْكِحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ"[١]، رضي الله تعالى عنه.

كذلك من هذا الباب تجريح الشهود والرواة، الشاهد إذا جاءَ القاضي وأرادَ أن يعدِّل هذا الشاهد وسألَ عنه ماذا تعرف عنه؟ وأنت تعرفُ أنه فاسق فتقول يفعل كذا ويفعل كذا ويفعل كذا، لماذا؟ لأن شهادته سيبنى عليها حكمٌ شرعي، ومن هذا الباب أيضًا ما يفعله علماءُ الحديث عندما يقولون هذا الراوي مثلًا كذَّاب وهذا متَّهم وهذا كذا ويذكرون بعض الصفات في بعض الرواة لأن ذكرَ هذه الأشياء يترتبُ عليها مصلحة شرعية وهي المحافظة على السنة، إذًا هذه هي الحالة الثالثة الذي تجوزُ فيها الغيبة.

الحالة الرابعة: قالَ العلماء إذا احتاجَ الإنسان أن يستعينَ بشخصٍ في إنكار منكر، يعني لو كان هناك إنسان يفعل منكرًا وأنت لا تستطيع أن تنكر عليه ولا أن تمنعه مما هو فيه وتعلم أن هناك شخصًا له سلطة وقدرة على منع هذا الإنسان من منكره وإزالته عنه فهنا يجوز لك أن تذهبَ لهذا الشخص وربما يجب عليك، وأن تقول له إن فلانًا يفعل كذا ويفعل كذا ويفعل كذا، هذا من باب الغيبة، صحيح؟ لأنك تذكره بما يكرههُ، واضح؟ وفي هذه الحالة جوَّزت الشريعة للإنسان أن يستعين في إنكار المنكر بشخصٍ ولو ذكر الآخر بما فيه من المنكر.

هذه بعض المواضع التي تجوز فيها الغيبة، ونكمل غدًا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

[١] رواه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي.

الحلقة السادسة

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدهُ ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابهِ أجمعين وعلى من اهتدى بهديه وسارَ عل سنته إلى يوم الدين، ثمَّ أما بعد؛

فإن الوقتَ لا يتسع للتفصيل الذي كنا نسير عليهِ في تفسير الآيات، ولذلك سنقتصرُ على ذكر المعاني التي يتضحُ بها المعنى العام للآية من غيرِ دخول في كثيرٍ من التفاصيل والأمور الأخرى التي ربما كنا نشير إليها بين حينٍ وحين.

فنحاول إن شاء الله أن نمرَّ على ما بقي من آيات سورة الحجرات وكنا قد وقفنا عند قول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا} قلنا إن هذه الآية قد نهت عن ثلاثة أمور وأوجبت على المسلمين أن يتقوها وأن يجتنبوها؛

الأمر الأول: سوء الظن بالمسلمين، فإنه كما قال النبي ﷺ: "أَكْذَبُ الحَدِيثِ"[١].

الأمر الثاني: هو التجسس، ومعناهُ البحث والتحسس لمحاولة الإطلاع على عورات المسلمين، وكما قال النبي ﷺ في الحديث الذي ذكرناه بالأمس: "يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ، لا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي عقر بَيْتِهِ"[٢]، أي ولو في عقر داره، فالمسلم إذًا مطالب بأن يستر على أخيه المسلم، لا أن يفضحهُ وأن يُشهّر بهِ ويذكر معايبه في المجالس وينشرها بين الناس وربما يفرحُ بما يكتشفه من الأخطاء والعيوب والزلات والهفوات التي يقع فيها المسلم، فهذا أخوك؛ سِترك له هو سترٌ لك أنت، وكما ذكرنا في الآية السابقة التي قبل هذه قول الله سبحانه وتعالى: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ}.

الأمر الثالث: هو الغيبة، وقلنا إن الغيبة داءٌ عضال إذا انتشر في المجتمعات فإنه يفرق ويقطع أواصرها وما بينها من الروابط وتورث الشحناء والبغضاء والعداوة، وتجعل الإنسان أو تجعل المسلم يكيد لأخيه المسلم، ويحاول أن يوقعه فيما يكرههُ، فلهذا نهى الله سبحانه وتعالى عنها أشد النهي، ونهى عنها النبي ﷺ أشد النهي، وورد في ذلك أحاديث متعددة لا مجال لذكرها والمرور عليها.

وكلنا نعلم الأحاديث التي كقول النبي ﷺ في حجةِ الوداع: "إِنَّ دِمَاءكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا"[٣]، فالنبي ﷺ سوَّى في الحرمة بين هذه الأمور، الدماء يعني فلا تسفكوها بغير حقٍ، والأموال فلا تأخذوها بغير حقٍ، والأعراض فلا تنتهكوها، ولذلك -كما ذكر شيخ الإسلام وغيره- تجد الإنسان يتورع كثيرًا عن سفك دم أخيه المسلم ويتورع عن أخذ مال أخيه المسلم بغير حق ولكنه لا يتورع عن تقطيع عرض أخيه المسلم، يعني تجدهُ في المجالس يخوض في عرض

---

[١] متفق عليه,

[٢] رواه أحمد وأبو داود والترمذي. قال الحافظ العراقي: أخرجه أَبُو دَاوُد من حَدِيث أبي بَرزَة بِإِسْنَاد جيد وللترمذي من حَدِيث ابْن عمر وَحسنه.

[٣] متفق عليه.

هذا ويخوض في عرض هذا ويذكر معايب هذا ويذكر أخطاء هذا وهو لا يدري بذلك أنه قد ارتكب محرمًا لا يكاد يقل في حرمته عن سفك دم المسلم.

بل كثير من الناس يرضى أن تقتلهُ ولا يرضى أن تتكلم في عرضه، ولهذا قال النبي ﷺ: "إِنَّ دِماءكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وأعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ".

وذكرنا بالأمس بعض الصور التي استثناها العلماء وجازَ فيها غيبة المسلم وقلنا ضابطُ ذلك أن يكون هناك مصلحةٌ شرعية تدعو إلى ذكر هذا العيب وأن لا يمكن التوصل لهذه المصلحة إلا عبر الغيبة، فإذا وجد هذان الشرطان فإنها تجوزُ، بل ربما تجبُ إذا ترتب عليها دفعُ ضررٍ محققٍ في حق المسلمِ.

ثمَّ قال الله سبحانه وتعالى بعد ذلك في آخر الآية: {أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}، فأمر أولًا بتقوى الله عز وجل وقد مرَّ معنا هذا الأمر مكررًا في هذه السورة وفي غيرها من السور، فالله سبحانه وتعالى يأمر بتقواه، لماذا؟ لأنها هي الحائل بين المسلم وبين اقتحام محارم الله عز وجل، أن تجعل بينك وبينها وقاية حاجز يمنعك من دخولها، هذا الحاجز هو خشية الله عز وجل ومراقبة الله سبحانه وتعالى، هو العلم والتيقن بأنك معروضٌ ستعرض على الله عز وجل وأنه سيسألك عن كل صغيرٍ وكبيرٍ من أعمالك سواءٌ منها ما يتعلق بحق الله سبحانه وتعالى أو ما يتعلق بحقوق العباد، فالإنسان إذًا مأمور بتقوى الله سبحانه وتعالى.

ثمَّ بعد ذلك أمرَ بالتوبة، والله سبحانه وتعالى أمر بالتوبة في كتابه فقال: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ} [سورة النور:٣١]، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا} [سورة التحريم:٨].

التوبة قسمان؛ هناك توبةٌ عامة بمعنى أن الإنسان يتوب توبةً عامة من كل ذنب ارتكبه، فالإنسان لا يستطيع أن يستحضر ذنوبه كلها في كل حين ولكن يستطيع أن يعزم

بقلبه على أن لا يعصي الله سبحانه وتعالى ما ستطاع، وأنه سيقلع عن الذنوب التي كان يفعلها، هذه توبة عامة.

وهناك التوبة الخاصة التي تتعلق بذنبٍ معين يعلمه الإنسان، وقال العلماء إن التوبة واجبة، التوبة واجبة وتصحُّ التوبة من بعض الذنوب مع عدم التوبة من بعضها، يعني الإنسان قد لا يتوب من ذنبٍ ويتوبُ من ذنبٍ على وجه الخصوص، فالله سبحانه وتعالى أمرَ المؤمنين بالتوبة: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا} ليس هناك مؤمنٌ على وجه الأرض لا يحتاج إلى التوبة، لماذا؟ لأنه ليس هناك أحد معصوم من معصية الله عز وجل، أقل ذلك التقصير في حق الله سبحانه وتعالى، المسلم مهما عبد الله عز وجل مهما صلى مهما صام مهما سجد مهما ذكر إلا أنه لم يؤدِّ شيئًا من شكر نعم الله عز وجل، نعم الله سبحانه وتعالى عظيمة، {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} إذا كنت أنت عاجزًا عن عدِّ نعم الله فكيف ستؤدي شكرها؟

لذلك كما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: توضع يوم القيامة ثلاثة دواوين، ديوانٌ للحسنات وديوانٌ للسيئات -المعاصي- وديوانٌ للنعم، ديوان لنعم الله عز وجل، فيقول الله سبحانه وتعالى قايسوا بين نعمي وبين عبادات عبدي، يعني انظروا هل تكافئها، فأي عمل يمكن أن يكافئ نعم الله سبحانه وتعالى؟ لا يوجد، فتستهلك نعم الله الطاعات كلها فتبقى المعاصي تحتاج إلى شيء يقابلها من الحسنات، ولذلك لن يدخل الجنة أحد بعمله وإنما برحمة الله عز وجل، ومع ذلك كما قلنا فإن الإنسان مطالب بالتوبة، والتوبة كما ذكر العلماء لها شروط، التوبة ليست مجرد كلمة يقولها الإنسان ويرددها على لسانه، وإنما هي عمل يجتمع فيها عمل الجوارح وعمل القلب أيضًا.

أول هذه الأعمال أو أول هذه الأمور التي يحتاجها التائب هي العزمُ على عدم العود إلى هذا الذنب، سواء كان هذا الذنب مما يتعلق بحقوق الله أو ما يتعلق بحقوق العباد، الإنسان يعزم بقلبه عزيمة قاطعة أن لا يرجع إلى هذا الذنب مرة أخرى.

الأمر الثاني هو الندم على ما فعله، يعني الانكسار والحياء والندم، لماذا هو اقترف هذا الذنب في حق الله سبحانه وتعالى أو في حق أحدٍ من عباده.

الأمر الثالث هو الإقلاع عن الذنب، أن يقلع عن الذنب، فلا يصح أن يكون الإنسان منغمسًا في معصية من المعاصي ويعبُّ منها عبًّا ويقول أنا أتوب إلى الله سبحانه وتعالى، وإنما التوبة لا بد أن يكون فيها أعمال الجوارح هو مفاصلة هذه المعصية، ولذلك فالرجل الذي قتل تسعًا وتسعين نفسًا ثم تمَّم بالراهب وتمَّم مئةً أرشده العالِم إلى الخروج من هذه الأرض التي يرتكب فيها المعصية؛ مفاصلتها الابتعاد عنها فإنها أرض سوءٍ.

هذه الشروط قال العلماء: إذا كان الذنب حقًّا لله عز وجل، فإذا كان الذنب من حقوق العباد أضيف إليه شرط آخر وهو التحلل من صاحب هذا الحق، يعني طلب الصفحِ والعفوِ من صاحب هذا الحق، سواء كان هذا الحق ماديًّا كأموالٍ أخذتها منه بغير حقٍ أو كان هذا معنويًّا كالغيبة والنميمة والكذب عليه والافتراء، ولكن قال العلماء: كالغيبة؛ ربما يؤدي ذكرك لأخيك وذهابك إليه وتحللك منه إلى زيادة العداوة، فقالوا: في هذه الحالة يكفي الإنسان أن يذكر من اغتابه في المجالس التي استنقصه فيها أن يمدحه ويذكر ما فيه من المحاسن حتى يتحلل مما ارتكبه وأن يدعو له في ظهر الغيب.

ولهذا قال الله عز وجل هنا في آخر الآية: {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}، يعني الإنسان لا ييأس من رحمة الله عز وجل، وعليه أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى من كل ذنبٍ من قبل أن يحال بينه وبين التوبة، إذا خرج الإنسان من هذه الدنيا وعلى ظهرهِ أوزار من حقوق العباد أو من حق الله عز وجل فخلاص ستحاسب على هذه الأعمال، أما ما دمت في الدنيا وفي السعة وبإمكانك التوبة والإقلاع والندم والاستغفار والإكثار من الحسنات التي تُكفر السيئات فالباب أمامك مفتوح، ما الذي يمنعك؟ {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}، "وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا"[1].

[1] رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

إذًا نحن محتاجون إلى التوبة ومحتاجون إلى تقوى الله سبحانه وتعالى التي وصى بها الأولين والآخرين كما قال الله سبحانه وتعالى: {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ} [سورة النساء:١٣١].

ثمَّ قال الله عز وجل بعد ذلك: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}.

تُبين لنا هذه الآية الميزان الصحيح عند الله عز وجل في تفاوت مراتب الناس، فذكر الله سبحانه وتعالى ابتداء الأصل الذي يتساوى فيه جميع الناس الأسود والأحمر والأبيض، العبد والسيد، القريب والبعيد كلهم قال الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} وانظر كيف خاطبهم بالناس وما قال: يا أيها الذين آمنوا، وهو خطاب لجميع الناس وهذا الخطاب {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} هو من المعهود في السور المكية وليس في السور المدنية، السور المكية هي التي تجد فيها {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} لأن الخطاب كان عامًّا ولم يكن للمسلمين مجتمع خاص بهم يفردنا به عن الكفار {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [سورة الحج:١] إلى غير ذلك.

فقال الله عز وجل هنا: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ} وهما آدم وحواء، يعني كلكم يرجع أصلكم إلى آدم وحواء، فالنسب الطيني لا تفاوت فيه، النسب الطيني من حيث أصل الخلقة هذا لا تفاوت فيه بين الناس كلهم فيه سواء كما قال النبي ﷺ: "كُلُّكُم لِآدَمَ"[١]. فقال الله عز وجل هنا: {يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} ثم بعد ذلك الله سبحانه وتعالى فرق العباد وجعلهم شعوبًا وهم أعم من القبائل، والقبائل هم جزء من الشعوب، يعني الشعوب تتركب من القبائل وهكذا هي ست مراتب يذكرها العلماء.

فقال الله عز وجل وبيَّن لنا ما هي الحكمة من جعل الناس شعوبًا وقبائل قال: {لِتَعَارَفُوا} يعني ليقع التعارف فيما بينكم فينتسب هذا إلى هذه القبيلة وينتسب هذا إلى

---

[١] رواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب والبيهقي في شعب الإيمان وقال: سلم بن سالم البلخي غير قوي قد رواه عن رجل مجهول (ضعيف).

هذه القبيلة أو إلى هذا الشعب، إذًا هنا كون الإنسان ينتمي إلى شعبٍ من الشعوب أو إلى قبيلة من القبائل هذا بمجرده لا يدل على التفاضل، والحكمة فيه فقط ليقع التعارف بين الناس {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}.

ثم بيَّن الله سبحانه وتعالى الميزان الحقيقي الذي على الناس أن يتنافسوا فيه وهو الذي تكون به درجاتهم ومنزلتهم عند الله سبحانه وتعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} ليس صاحب المال ولا صاحب الجاه ولا صاحب السلطان ولا صاحب الحكم ولا صاحب الجمال ولكن الكريم عند الله سبحانه وتعالى هو التقي، وهذا باب يستطيع كل إنسان أن يجتهد فيه، هذه المراتب يستطيع كل واحد من الناس أن يبذل جهده ليكون تقيًّا لله عز وجل، فالأعمال أمامك والقدرة عندك والله سبحانه وتعالى موجود لتستعين به في أداء الطاعات واجتناب المحرمات فما الذي يمنعك من تقوى الله سبحانه وتعالى لتكون من الأكرمين، وتكون بعد ذلك من المقدمين؟ فقال الله عز وجل: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} وجاءت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ تؤكد هذا المعنى، النبي ﷺ سأله الصحابة قالوا: مَن أكرم الناس؟ قال: "أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ"[١]، أتقاهم لله سبحانه وتعالى، والتقوى تشتمل القيام بالطاعات واجتناب المحرمات، وعندما نقول أداء الواجبات والطاعات فهذا باب واسعٌ عظيم فيه يتنافس المتنافسون سواء كان من الفرائض العينية أو الواجبات الكفائية أو المستحبات أو ترك المشتبهات والمكروهات وكذلك اجتناب المحرمات.

إذًا هذه هي الحقيقة التي يتفاوت بها الناس، أما من أراد أن يفاضل بين الناس بالقومية أو بالشعوبية أو بالمال أو بالجاه أو بالقوة أو بالعقل أو بغير ذلك هذه كلها لا ميزان ولا قيمة لها عند الله سبحانه وتعالى، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، لا فضل لعربي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح، {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}، ولهذا فالذين -هذا المعنى دائمًا نكرره- الذين يريدون أن يغرسوا في قلوب شعوبهم -سواء كانت الشعوب العربية أو غيرها- الترفع على بقية الشعوب بمجرد الانتماء لهذا الشعب أو لغير الشعب هؤلاء قد ناقضوا وخالفوا الميزان الشرعي الذي جاء به كتاب

[١] رَوَاهُ أَحْمد وَالطَّبَرَانِيّ من حَدِيث درة بنت أبي لَهب، قال الحافظ العراقي: إِسْنَاده حسن.

الله سبحانه وتعالى الميزان الذي جاء به كتاب الله سبحانه وتعالى وهو تقوى الله عز وجل، أما الصورة والجمال والمال والجاه والقومية والوطنية والمصلحة المشتركة وغير ذلك فهذه كلها لا قيمة لها عند الله عز وجل، فقال الله سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}.

وأذكر هنا حديثًا يبين لنا أن الميزان عند الله عز وجل هو بالأعمال الصالحة التي يقوم بها العبد، النبي ﷺ كان في طريقه إلى غزوةٍ فجاءه رجل قال: يا رسول الله إني رجل أسود اللون قبيح المنظر منتن الريح -هكذا يقول هذا الرجل عن نفسه- قال: أرأيت إن قاتلت هؤلاء فقُتلت فأين أنا؟ قال: "فِي الْجَنَّةِ"، فقاتلهم وقُتل، هذا الرجل قُتِل، فالنبي ﷺ قال: "وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ إنه لمن مُلُوك الْجنَّة"[1]. هذا رجل لا يلبس الكرافتة ولا يخفف لحيته ولا يسرّح شعره يمينًا ولا يسارًا وليس مفتونًا بحضارة غربية ولا بتقدم موهوم، وإنما كان عمله فقط إن قاتلت هؤلاء فقتلت فأين أنا؟ قال: "فِي الْجَنَّةِ"، هو يقول عن نفسه لوني أسود شكلي قبيح رائحتي منتنة هذا أنا، إذًا الذين يحاولون أن يفاضلوا بين الناس بهذه المعايير الأرضية التي ابتلوا بها والتي غزتهم من الشعوب المادية التي تعطي قيمة للناس بحسب غناه وبحسب ماله وبحسب جاهه هؤلاء لا يدركون هذا الميزان الشرعي الذي جاءَ به كتاب الله سبحانه وتعالى، {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}، هو الذي يعلم التقي ويعلم الصالح، {وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ}، فما في القلوب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، والتقوى كما قلنا هي مقسمة على أعمال الجوارح، ومقسمة أيضًا على أعمال القلوب وفيها يتنافس المتنافسون.

ثم قال الله عز وجل -ولا بأس إن أطلنا قليلًا-: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ

---

[1] رواه الحاكم والبيهقي من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه، وتكملة الحديث ليس كما ذكر الشيخ، بل: "لَقَدْ حَسَّنَ اللَّهُ وَجْهَكَ الطَّيِّبَ، وَطَيَّبَ رِيحَكَ، وَكَثَّرَ مَالَكَ «وَقَالَ:» لَقَدْ رَأَيْتُ زَوْجَتَيْهِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ يَتَنَازَعَانِ جُبَّتَهُ عَنْهُ؛ يَدْخُلَانِ فِيمَا بَيْنَ جِلْدِهِ وَجُبَّتِهِ". قال الحاكم والذهبي: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأما قول النبي: "وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ إنه لمن مُلُوك الْجنَّة" فهذا قطعة من حديث آخر حول أعرابي، رواه البيهقي في شعب الإيمان من طريق ابن عمر رضي الله عنهما. قال المنذري: إسناده حسن. وسبب خلط الشيخ هو وجود الحديثين بعد بعضهما في الترغيب والترهيب للمنذري.

شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}. الأعراب هؤلاء أقوامٌ جاؤوا ودخلوا في الإسلام، دخلوا في الإسلام وفي أول دخولهم للإسلام زعموا أنهم قد بلغوا حقيقة الإيمان، يعني أن الإيمان قد تمكن في قلوبهم وأنهم قد أتوا بحقائقه، فقال الله عز وجل: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا} يعني آمنَّا إيمانًا حقيقيًّا راسخًا، فقال الله عز وجل: {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا} ليس المقصود أنكم كفار لا، ولكن أن الإيمان المتمكن في القلوب والذي يأتي به صاحبه بحقائقه هذا لم يدخل في قلوبكم بعد، قال: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا}، وبهذه الآية استدل بعض العلماء على أن الإيمان والإسلام مختلفَين وأن الإيمان أخص من الإسلام، فكل مؤمن مسلم، وكل محسن مؤمن، ولكن ليس كل مسلم مؤمنًا، وليس كل مؤمن محسنًا، فالإيمان أخص من الإسلام، وكما قلنا من قبل إن الإيمان والإسلام إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

فقال الله عز وجل هنا: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} يعني لم يدخل الإيمان في قلوبكم بعد بمعنى الدخول المتمكن الذي تحصلون معه على حقيقة الإيمان، {وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا} يعني إذا أطعتم الله سبحانه وتعالى وأطعتم رسوله لا ينقصكم من أعمالكم شيئًا، كما قال الله عز وجل: {وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [سورة الطور: ٢١]، يعني وما أنقصناهم من عملهم من شيء فلا يخافوا ظلمًا ولا هضمًا، حقك لا يضيع عند الله سبحانه وتعالى فإذا أديت طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ على الوجه الذي أمرت به فلا تخف أن يضيع هذا العمل الصالح، وقال الله عز وجل هنا: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} وهذه الآية تدلنا على أن الإنسان لا يزكي نفسه، الإنسان عليه أن لا يزكي نفسه لأنك لا تعرف حقيقة نفسك، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ} فالله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم السر وأخفى، هو الذي يعلم تقواك ويعلم قدرها ويعلم إن كنت صادقًا فيها، وهو الذي يعلم إيمانك ويعلم قدره ويعلم إن كنت صادقًا فيه، فالإنسان عليه أن لا يغتر بعمله.

أولًا: لأن هذا العمل قد يكون متضمنًا لأمر يمنع من قبوله عند الله سبحانه وتعالى وأنت لا تشعر.

ثانيًا: إنك لا تدري أيبقى هذا العمل بعد أدائه أو لا يبقى، قد ترتكب من المعاصي ما يؤدي إلى إحباط هذا العمل.

ثالثًا: إنك لا تدري أتموت على الإيمان أم لا تموت على الإيمان.

فالإنسان عليه إذًا أن لا يغتر بعمل صالح قام به، ولكن يشكر الله على أن وفقه لأداء هذا العمل، سواء كان هذا العمل صلاةً أو ذكرًا أو تلاوةً أو تهجدًا أو جهادًا أو إعدادًا أو نصحًا أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن المنكر أو تعلمًا أو تعليمًا، كل عمل صالح وفقك الله إليه فاشكر الله عز وجل عليه وأكثر من شكر الله عز وجل على هذا العمل، ولا تغتر بهِ، لا تغتر بهذا العمل ولك أن تفرح به من باب أن الله سبحانه وتعالى يسره عليك ووفقك إليه.

قال الله عز وجل: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} ثم قال الله سبحانه وتعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}، هؤلاء هم المؤمنون الذين كمُل إيمانهم والذين هم رسخت قلوبهم في الإيمان، إنما المؤمنون -يعني الكاملون- الذين آمنوا باللهِ آمنوا بألوهيته وبربوبيته وبأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} وآمنوا برسوله أيضًا، صدَّقوا النبي ﷺ فيما أخبر، وأطاعوه فيما أمر، وانتهوا عمَّا عنه نهى وزجر، وكانوا مجتهدين في طاعة الله عز وجل، {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} قلوبهم راسخة في الإيمان، هم على يقين لم يتطرق إليهم شك ولا ريب ولا تذبذب ولا تردد، وإنما قلوبهم ثبتت ورسخت في حقيقة الإيمان، حاله في حال السعة كحاله في حال الشدة، حاله في حال العسر كحاله في حال اليسر، حاله في حال الكرب كحاله في حال الفرج، قلبه راسخ متعلق بالله عز وجل يعلم أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يقلب أمره يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه

لم يكن ليصيبه، هذا هو المؤمن الحق، والذين أضافوا على إيمانهم وطاعتهم لله عز وجل ماذا؟ {وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، إذًا الجهاد هو عنوان الصدق، الجهاد هو عنوان، قال الله عز وجل: {أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} الذي جمعوا بين هذه الأمور بين الإيمان بالله والإيمان برسول الله ﷺ، قد لا يكفي هذا وحده، لا بد من البرهان، لا بد من البينة، لا بد من وجود الإثبات لهذه الدعوة، ما هو؟ هو الجهاد في سبيل الله، لماذا؟ لأن الجهاد هو الساحة التي يقدم فيها الإنسان السلعة التي طالبه الله سبحانه وتعالى بها {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم} إذا كنت مؤمنًا حقًّا بالله وبرسوله والله سبحانه وتعالى يقول لك إني قد اشتريت منك نفسك وثمن نفسك هو الجنة فقدمها، أين تقدمها؟ في ساحات الجهاد، في ساحة الجهاد، فإذا وُفقت لهذا الأمر وقدمت نفسك بسخاءٍ وبرضا وأنت تطلب الشهادة وتجاهد في سبيل الله عز وجل فهذا من توفيق الله سبحانه وتعالى وهو من علامات الصدق.

إذًا قال الله عز وجل: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، الذي يدفع عن الإنسان الريب والذي يعزز صدقه في نصرة دين الله وفي إيمانه بالله وفي حبه لله عز وجل هو الجهاد في سبيل الله، لماذا؟ لأنه يقدم نفسه وهي أغلى ما يملك، يقدمها لله سبحانه وتعالى، ولأنه ترك الدنيا كلها وراءه من أجل إرضاء الله عز وجل، ترك بيته وأهله وتجارته ومسكنه وأبناءه وشهادته وجامعته وغير ذلك ووظيفته من أجل أن يثبت أنه مستعد لأن يقدم نفسه إرضاء لله عز وجل كما قال الله سبحانه وتعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} [سورة التوبة:٢٤].

إذًا هل هناك شيء فوق هذه الأمور التي ذكرها الله سبحانه وتعالى مما يتشبث به الناس؟ ما من أحد يا إخوة يبتعد عن الجهاد ويتعذر في ترك الجهاد إلا ويحتج بشيء مما ذكره الله سبحانه وتعالى، إما أن يحتج بخدمته لبيته وأبنائه وأهله، أو يحتج بوظيفته والتي هي: {وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا} أو يحتج بماذا؟ بتعمير البلاد والبيت وغير ذلك وأن

البلاد محتاجة إلينا ولأعمالنا {وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا} وغير ذلك من الأمور، فالإنسان ما دام هناك شيء من أمور الدنيا يثبطه {اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ} فليعلم أنه ما زال في دائرة المحنة يحتاج إلى إثبات صدقه في الإيمان.

وقال الله عز وجل: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ} يعني الكُمَّل الذين كَمُل إيمانهم {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} يعني الذين وافق قولهم فعلهم وتطابق فعلهم مع اعتقادهم ومع إيمانهم بالله وبرسوله ﷺ.

ثم قال الله عز وجل: {قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} هذا ردٌّ على الأعراب الذين قالوا آمنًا، يعني قل أتخبرون الله بحقيقة دينكم، الله هو الذي يعلم إن كنتم آمنتم كما قلتم {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا} أو لم تكونوا كذلك، {قُلْ أَتُعَلِّمُونَ} يعني قل أتخبرون الله بحقيقة دينكم الذي هو إيمانكم. {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، الله لا تخفى عليه خافية، فهو الذي يعلم إن كنتم مؤمنين حقًّا، والله سبحانه وتعالى يعلم إن كان إيمانكم ضعيفًا أو إن كنتم مسلمين أو إن كان في إيمانكم وهنٌ ورقةٌ، فالله عز وجل لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ} يعني هؤلاء يمنون عليك أيها النبي بأنهم أسلموا، وذكروا أنهم قوم من العرب أسلموا وقالوا: إن العرب قاتلتك ولم نقاتلك. كأنهم يمنون على النبي ﷺ، {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ} فقال الله سبحانه وتعالى صحّح لهم هذا الفهم الخاطئ قال: {قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ}، {فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ}، "فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ"[١]، {قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ} نعم الله سبحانه وتعالى هو الذي يمنُّ على عبده أن فتح له باب الهداية وشرح صدره لنور الإيمان وأخرجه من الظلمات إلى النور وأنقذه من

[١] رواه مسلم.

الكفر إلى الإيمان وأخرجه من المعصية إلى الطاعة، هذا كله بتوفيق الله سبحانه وتعالى، هذا كله بتوفيق الله وتيسيره وإعانته سبحانه وتعالى فهو الذي يمنُّ على عباده ليشكروه على هذه النعمة، فقال: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواۖ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

ثم قال الله عز وجل: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} وهذا من باب الأمر العام، فهناك أخبرهم الله سبحانه وتعالى: {قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ} يعني بما في قلوبكم إن كان إيمانًا أو لم يكن كذلك، وهنا أخبرهم بأن الله سبحانه وتعالى يعلم كل غيبٍ في السماوات وفي الأرض وهو البصير بأعمالكم، يعلم إن كانت موافقة للحق أو مخالفة يعلم إن كنتم صادقين فيها أو لم تكونوا كذلك، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم السر وأخفى سبحانه وتعالى.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علَّمنا، وأن يجعلنا من الصادقين، وأن يختم لنا ولكم بالشهادة في سبيله إنه سميع قريب، وصلِّ اللهم على خير خلقك محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وجزاكم الله خيرًا.

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

لا تنسوا إخوانكم من الدعاء

صحيفة الخلافة